

المكتبة الثقافية

Sp. 001

962.16

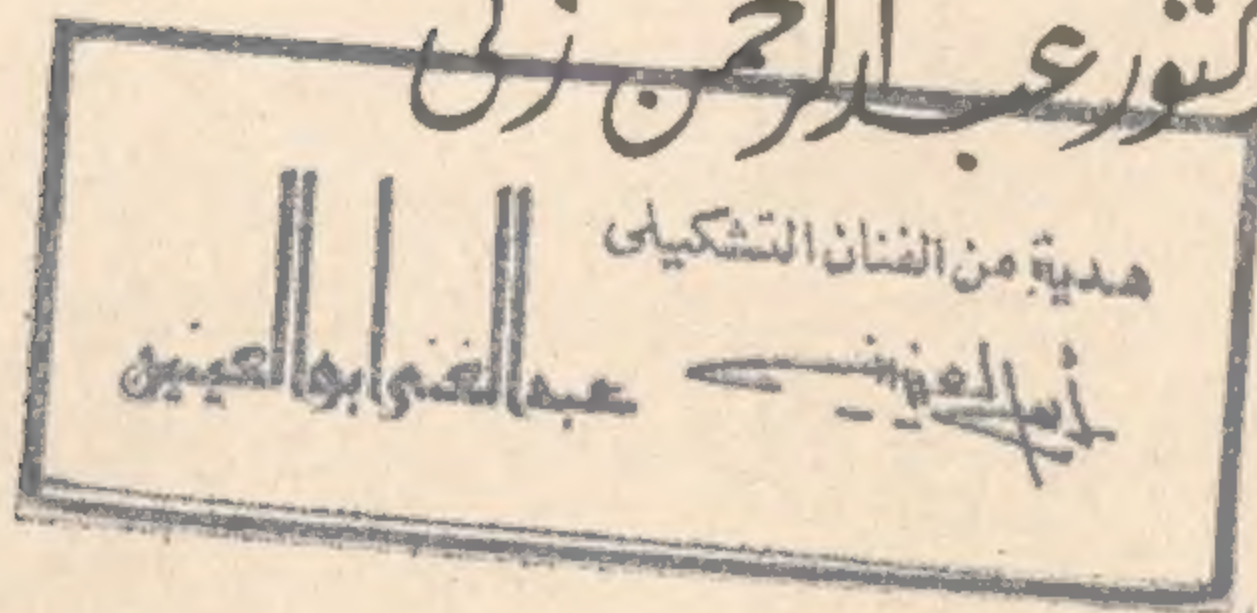
Z217b

بنات القاهرة

ف ألف عام

تأليف

الدكتور عبد الرحمن زكي



المكتبة المصرية العامة للكتاب

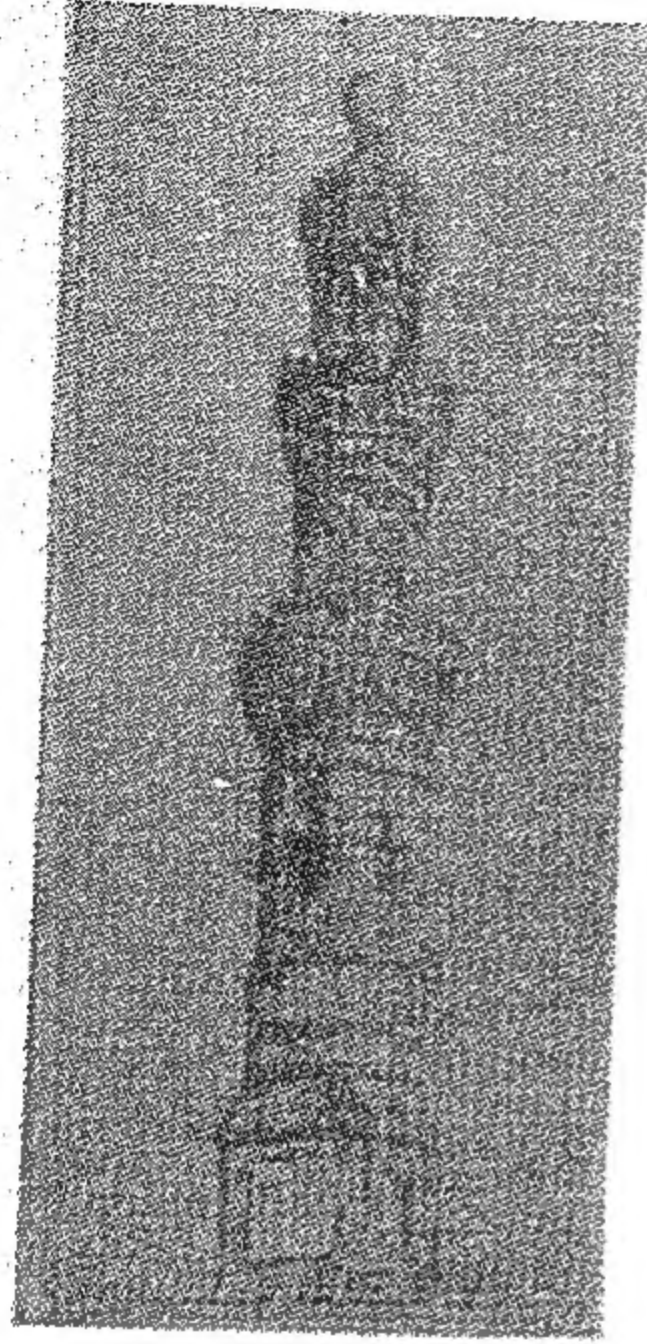
١٩٨٦

Sp.

962

Z21

١٦٢٨٩٧/٥



بسم الله الرحمن الرحيم

منمنة مسجد قايتباى

مقدمة

تتميز القاهرة كمدينة تاريخية عظمى بتراثها الفكرى الدينى والعلمى ، كما أنها تتميز أيضا بطائفة من العمائر الجليلة التى تعكس تطور العمارة الاسلامية فى ألف وثلاثمائة سنة على أقل تقدير . ويشبه هذا التطور البنائى متحفا للعمارة عرضت فى ردهاته عمائر كل مرحلة من مراحل التقدم . فان القاهرة تتميز وحدها بين مدن العالم الاسلامى بهذه الميزة . تشاهد فى أحيائها القديمة حلقة متصلة من الأساليب

المعمارية تتجلى فى مبانيها الدينية : كالمساجد والزوايا
والمدارس الدينية والتكايا • ومبانيها المدنية : كالقصور
والدور والحمامات والأسبلة وقناطر المياه ومبانيها الحربية :
كالقلاع والأسوار والأبواب ، فضلا عن الوكالات والخانات
والأسواق والقيساريات •

وأتقدم للقارىء الكريم فى هذا الكتيب بقصة تاريخ
القاهرة المعمارية ممثلا فى أنبل مبانيها التى أقامها طائفة
جليلة من أسامى بناتها ، اتصفوا على الأقل بحسن الذوق
وبعد النظر • • منذ وضع القائد جواهر الصقلى اللبنة الأولى
فى أسوارها وفى جامعها الأزهر ، وفى قصور خلفائها • •
حتى بناء القاهرة الحديثة ، موضحا ذلك بالرسوم كلما
كان ذلك فى الامكان •

وأسأل الله أن أكون قد وفقت • • •

عبد الرحمن زكى

الفصل الأول

بُناة القاهرة

لا شك أنه يتعذر علينا بعد مضي ألف سنة على تأسيس القاهرة ، أن نقف على أسماء جميع أفراد طوائف الحرف المختلفة الذين ساهموا في بناء القاهرة ، من حجارين وبنائين وملاطين ونقاشين ومزخرفين ، ورخامين ومبلطين . . وغيرهم ممن شاركوا مع هؤلاء من حمالين وعاملين ، وسقائين ، فضلا عن آلاف المعمارين والمهندسين والمخططين الذين أجهدوا قرائحهم في خلال الألف عام ليجعلوا من مدينة القاهرة عاصمة لأفريقيا ومركزا رئيسيا للحضارة الإسلامية ومنارا للعلم والمعرفة . . هذا أمر من المحال تحقيقه ، ولذلك فما علينا الا أن نختار من هؤلاء البناة العظام الذين حفظ التاريخ العربي أسماءهم ، كما خلد أعمالهم وعمائرهم على مر السنين .

ففي أعقاب فتح العرب لمصر سنة ١٨ هـ (٦٣٩) .
شيد القائد عمرو بن العاص مدينة القسطنطين في سنة
٢١ هـ (٦٤١) ، واختط عمرو الجامع العتيق ، ثم اختطت

القبائل العربية من حوله ، وكان عمرو قد ولى على الخطط
أربعة من المسلمين للفصل بين القبائل فى تنظيم خطة كل
منها ، هم : معاوية بن خديج التجيبى ، وشريك بن سمي
الغطفى ، وعمرو بن محزم الخولانى ، وجبريل بن ناشرة
المعافرى (١) .

ولما قام بنو العباس وقضوا على حكم الأمويين ، أنشأوا
حاضرة جديدة لدولتهم الناشئة فى مصر فى مكان عرف فى
صدر الاسلام باسم الحمراء القصوى فى شمال شرق الفسطاط
وفيه أقام العباسيون دورهم واتخذوا مساكنهم ، وشيّد
صالح بن على دار الامارة وثكن الجند ، ثم شيّد الفضل
ابن صالح مسجد العسكر ، وبمرور الأيام اتصلت العسكر
بالفسطاط وأصبحتا مدينة كبيرة خُطت فيها الطرق وشيّدت
عليها المساجد والدور والأسواق .

ومضت الأيام حتى جاء أحمد بن طولون الى مصر وعزم
على الاستقلال بالبلاد . . فرأى أن العسكر لا تتسع لحاشيته
فضلا عن أنها تضيق بمطامعه ، فصعد الى المقطم ونظر الى
ما حوله فرأى بين العسكر والمقطم أرضا فضاء الا من
بعض المدافن مساحتها نحو ميل مربع ، فأمر بهدمها ليقيم
عليها قاعدته ، واختط فى موضعها مدينته الجديدة ،
القطائع : ووضعت الخطط الأولى للقاعدة الطولونية فى
شعبان عام ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م ، وبعد ست سنوات (٨٧٦ م)

(١) ابن دقماق : الانتصار ، ج ١ ، ص ٣٢٢ .

احتفل أحمد بن طولون بوضع أساس جامعته العظيم على جبل يشكر ، وانتهى بناؤه بعد عامين وما زال الجامع علما ناهضا فى تاريخ العمارة الاسلامية ، وكان ولا يزال موضع عناية جميع الحكام الذين تولوا الحكم من صيانة وتجديد وازافة خلال أكثر من ألف عام . . .

وبعد قرابة مائة عام من انشاء عاصمة آل طولون ، قدم جيش فاطمى من المغرب بقيادة القائد جوهر الصقلى موفدا من قبل الخليفة المعز لدين الله وكان مسيره من القيروان فى ١٤ ربيع الاول عام ٣٥٨ هـ (فبراير ٩٦٩) وفى ١١ شعبان ٣٥٨ هـ (يوليو ٩٦٩) وصل جوهر الى جيزة الفسطاط ، فوقفت فى وجهه حامية ضئيلة العدد ، وفى اليوم التالى دخل جوهر الفسطاط وتربص فى شمالها ثمانية أيام حتى تكاملت حوله جنوده بعد عبورهم النيل من الجيزة الى الفسطاط .

وكان جوهر قد نزل مع جنده فى المناخ الواقع شمال شرقى القطائع ، وأخذ فى وضع أساس القاعدة الفاطمية الجديدة - أى القاهرة - فى نفس الليلة ، وكان ذلك فى يوم الثلاثاء ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٧ يوليو ٩٦٩) ويؤيد هذا ما ذكره المقرئى فى خطه (ج ٢ ص ٢٠٤) كما وضعت أسس القصر الفاطمى الكبير (الشرقى) فى ١٨ شعبان ٣٥٨ هـ وبدىء فى بنيانه فى رمضان فى نفس العام وفى يوم السبت جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ (ابريل

٩٧٠) شرع القائد جوهر أيضا فى بناء الجامع الأزهر الى جانب القصر الكبير (الخطط ج ٢ ، ص ٢٧٣) .
وهكذا رأينا القائد جوهر فى أيام معدودات بعد فوزه الحربى ، يشيد قاعدة جديدة بأسوارها وأبوابها ودار ملكها وجامعها الأزهر ، بل وحفر خندقا من الجهة الشمالية ليمنع اقتحام القرامطة للقاهرة وكانوا يهددون مصر .

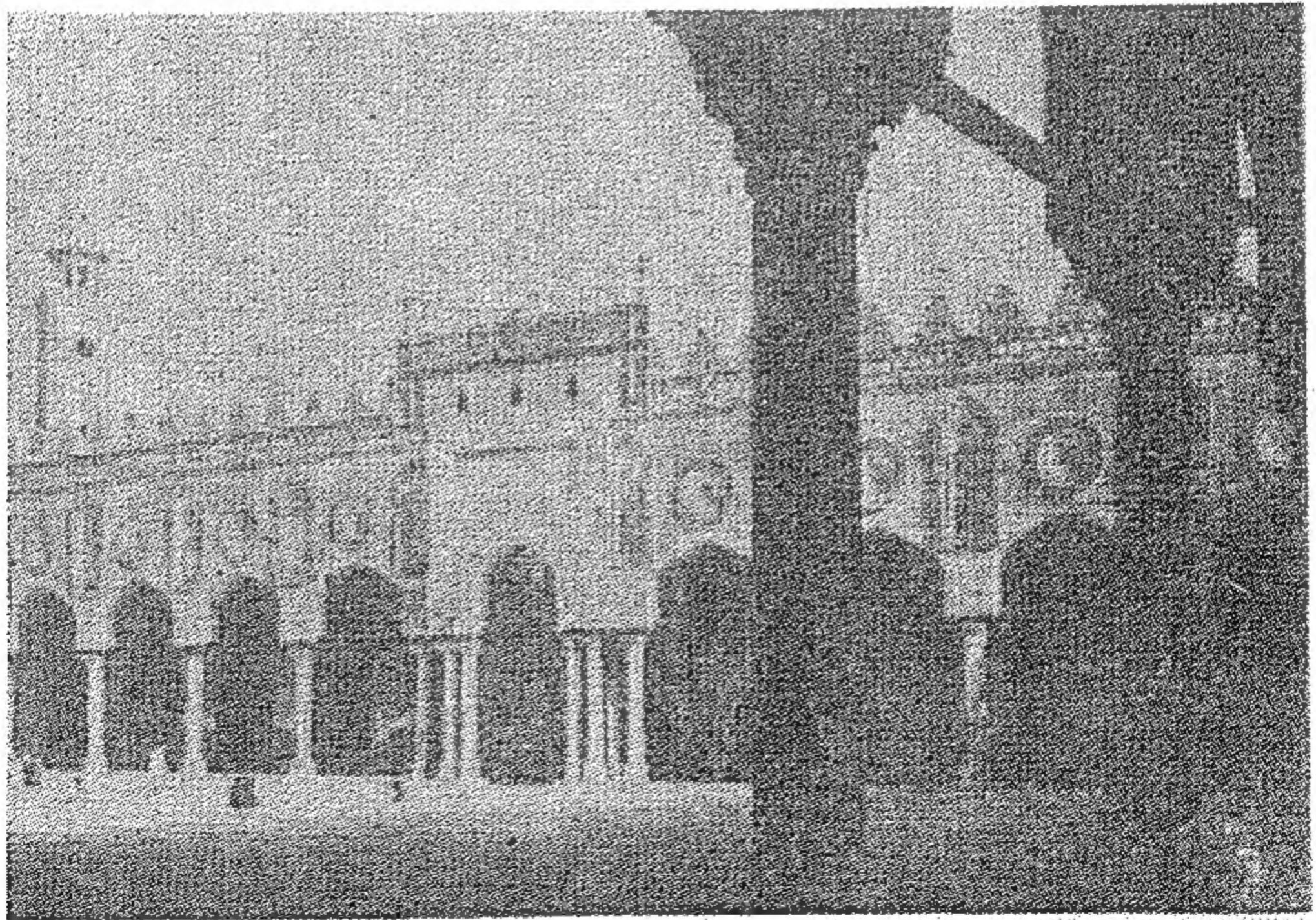
حقا لقد كان عملا رائعا ، ذلك الذى قام به القائد جوهر ، مؤسس القاهرة ومشيد الأزهر وفاتح مصر . . .

جواهر الصقل الذى شيد القاهرة

هو القائد الفاطمى الذى لا يعرف سنة مولده على وجه الدقة ، فيقال انه ولد حوالى عام ١٩١٨ م ، ورباه المعز لدين الله واختصه بين مواليه وجعله وزير ثم عينه قائدا لجيوشه فى حملة أرسلها الى تاهرت ، وأخرى الى فاس . نصبه المعز قائدا لحملة فتح مصر عام ٩٦٩ م ، فاستولى على الاسكندرية ثم واصل زحفه الى الجيزة فوقعت فى يده ، ودخل الفسطاط بعد عبور قواته نهر النيل ، وتم عقد الصلح بين المصريين والفاطمى . أسس جوهر مدينة القاهرة لتكون مقرا للفاطميين ومركزا لنشر دعوتهم الدينية

وشيد قصرًا للخليفة الفاطمي وبنى الجامع الأزهر (٩٧٠ هـ -
٧٢) وأقيمت فيه الصلاة لأول مرة في ٧ رمضان ٣٦١ هـ
(٢٢ يونيو ٩٧٢) . تولى جوهر قيادة الجيش الفاطمي
للقضاء على أفتكين والحسن زعيم القرامطة بالشام (٩٧٦)
ووطد سلطان الفواطم فيها . ثم عاد إلى مصر عام ٩٧٩ حيث
توفي ودفن بالقرافة الكبرى بالقاهرة .
فما هي جنسية القائد جوهر ، الذي فتح مصر وأسس
الأزهر ؟ تكلم عن ذلك العلامة أحمد زكي باشا شيخ العروبة
فقال :

تضاربت الظنون ، بسبب الوصف الذي أطلقه عليه
كتاب العرب المتقدمون .
لا مرء ولا جدال أن جزيرة صقلية كانت قد دخلت



صحن الأزهر الشريف

منذ زمان طويل فى حوزة أمراء أفريقية ثم آلت من بعده
الى الفاطميين .

فى خلال ذلك الزمان ، كان قد انتشر فيها الاسلام أيم
انتشار ، وازدهرت بربوعها العروبة أيم ازدهار .

فنبغ منها العلماء والفضلاء والكتاب والشعراء وأهل
الوجاهة والرفاهة . وكلهم يعرف بالصقلى نسبة اليها . وقد
جمع أسماءهم الكثيرة وتراجهم الوافية أحد المستشرقين
الطليان وهو العلامة أمارى (Amari) . من هذا الفريق
كان القائد جوهر والدليل على ذلك ان وظيفته الأولى التى
معروفا بها طول حياته وبعد مماته ، انما هى « كتابة »
السر » ثم تولى قيادة الجيش ، وقد أوغل فى فتوحاته حتى
انتهى الى المحيط الاطلنطى . ولما كان الرجل منسوباً الى
صقلية وكانت صقلية من البلاد الخاضعة لدولة الروم فى
القسطنطينية فقد نسبوه الى هذه الدولة ، وقالوا انه
« الرومى » كما كان الأتراك الى الأمس القريب ينسبون
قضاتهم وأشياخهم ورؤساء الدين منهم الى الروم ، بسبب
أن الترك فتحوا بلاد الروم . فصاروا ينتسبون وينسبون
اليها فيقولون انهم « أروام » ويقولون فلان « الرومى » ،
والامثال تعد بمئات المئات .

كان جوهر قائداً مدرباً وسياسياً محنكاً ، والدليل
على ذلك أنه لم يلجأ الى وسائل الشدة والعنف فى نشر
المذهب الفاطمى ، وانما اتبع الوسائل السلمية فاعتمد على

المسجد الذى اتخذه أشبه بمدرسة يتلقى فيه الأهالى تعاليم هذا المذهب ، دون أن يفرض على أحد اعتناقه ، فقد أنشأ الجامع الأزهر ليكون مركزا لتعليم المذهب الفاطمى حتى لا يضايق المصريين السنيين فى شعوره الدينى فى المساجد الأخرى . . . وهذا التسامح لم يصرف جوهرا عن الغرض الأول من سياسة الفواطم ، وهو تعميم مذهبهم بين المصريين وغيرهم ، فقد لجأ فى جذبهم اليه الى الوسائل المادية ، وذلك بإسناد مناصب الدولة الهامة الى معتنقى هذا المذهب ، مصريين كانوا أو مغاربة . . .

هذه لمحة قصيرة عن بناء القاهرة . . القائد جوهسر رحمة الله عليه . انجب « حسين » الذى خلع عليه الخليفة العزيز بالله بعد وفاة جوهسر ، وجعله فى رتبة أبيه ولقبه بالقائد بن القائد ، ولم يتعرض لشيء مما تركه جوهسر . فلما مات العزيز وقام من بعده ابنه الحاكم بأمر الله استدناه ثم انه قلده البريد والانشاء فى شوال سنة ست وثمانين وثلثمائة وخلع عليه ، ثم بعد أمور وقعت له ، قبض عليه وقتل وصودرت ضياعه ودوره !!

أمير الجيوش بدر الجمالى

(٤٠٥ / ٤٨٧ هـ - ١٠١٤ / ١٠٩٤ م)

البناء الثانى :

وبعد انقضاء ١٢٠ سنة من تأسيس القاهرة رأى أمير الجيوش بدر الجمالى وكان يومئذ وزيرا للخليفة المستنصر

بالله ان الناس شيدوا خارج سور القاهرة بسبب اتساع
ال عمران ولا سيما فى ناحيتها الشمالية والجنوبية ، فأحاطها
بسور وصله بسور جوهر سما ويسارا ، ويستفاد مما جاء



باب الفتوح (٤٨٠ هـ - ١٠٨٧)

بالخط المقرنيزية (ج ١ ، ص ٣٧٩) أن السور الثانى
الذى بناه بدر الحمالى فى عام ٤٨٠ هـ - ١٠٨٧ م زاد فيه
من الشمال الريادة التى بين بابى القوس اللذين أنشأهما
جواهر فى سور القاهرة الشمالى وبين السور الحالى الذى فيه

باب النصر و باب الفتوح الحاليان ، ثم أضاف فيه من الجهة الجنوبية الزيادة التى فيما بين بابى زويلة القديمين اللذين أنشأهما جوهر فى سور القاهرة الجنوبي وبين السور الذى فيه باب زويلة الحالى ، وجعل بدر الجمالى - الاسوار التى أنشأها من اللبن ، وأقام الأبواب من الحجارة ، وكذلك الأجزاء الواقعة على جانبى بابى الفتوح والنصر ، وعلى جانبى باب زويلة على مسافة ١٢٠ مترا تقريبا من كل جانب .

وقد زالت آثار الاسوار التى بناها بدر الجمالى باللبن وأقام صلاح الدين فى مكانها بعض أجزاء منها قطعات أخرى بالحجارة .

وتعتبر أعمال بدر الجمالى (وهى الأبواب الثلاثة) ذات أهمية بالغة ، لأنها تعتبر معالم بارزة فى العمارة العسكرية لعصور ما قبل الحملات الصليبية وهى باقية الى اليوم فى قلب القاهرة الأصيلة ويعحف بها بعض أجزاء من الأسوار القديمة .

والآن يود القارئ الكريم أن يلم بشيء من تاريخ حياة الرجل الثانى فى بناء أسوار القاهرة وأبوابها .

كان بدر مملوكا أرمنيا لجمال الدولة بن عمار ولذلك عرف بالجمالى ، وما زال يأخذ بالجد فيما يباشره ويوطن نفسه على قوة العزم حتى ولى امارة دمشق من قبل المستنصر بالله سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) ولأمر ما غادرها سرا ذات

ليلة ، ثم وليها ثانية سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦) فبلغه قتل
ولده شعبان بعسقلان ، فخرج في شهر رمضان سنة ٤٦٠ هـ
(١٠٦٧ / ٦٨) فثار العساكر وأخربوا قصره . وتقلد نيابة
عكا . فلما كانت أيام الشدة في مصر (الغلاء والمجاعة)
وثار العبيد في الريف والصعيد ونشط قطاع الطرق برا
وبحرا ، كتب المستنصر اليه يستدعيه ليكون المتولى لتدبير
دولته ، فاشترط أن يحضر معه من يختاره من العسكر
ولا يبقى أحدا من عسكر مصر ، فأجابه المستنصر الى ذلك ،
فاستخدم معه عسكره وركب البحر من عكا واقترض المال
من تجارها وأثريائها الذين قدموا له الغلال . وسار الى
قليوب فنزل بها وأرسل الى المستنصر يقول : « لا أدخل
الى مصر حتى تقبض على بلد كوش وكان أحد الأمراء وقد
اشتهر على المستنصر ، فبادر الخليفة واعتقله بخزانة البنود ،
فقدم بدر عشية الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة
٤٦٥ هـ (١٠٧٢ / ٧٣) ، فتهيا له أن قبض على جميع امراء
الدولة بعد أن استدعاهم الى منزله في دعوته لهم ، وبيت
مع أصحابه أن القوم اذا أجنهم الليل فانهم لا بد يحتاجون
الى الخلاء ، فمن قام منهم الى الخلاء يقتل هناك ، ووكل بكل
واحد واحدا من أصحابه ، وأنعم عليه بجميع ما يتركه ذلك
الأمير من اقطاع ودور ومال . فسار الأمراء اليه وظلوا
نهارهم عنده وباتوا مطمئنين . فما طلع النهار حتى استولى

أصحابه على جميع دور الامراء وصارت رؤسهم بين يديه ،
فقويت شوكته وعظم أمره ، وخلع عليه المستنصر بالطيلىسان
وقلده وزارة السيف والقلم فصارت القضاة والدعاة وسائر
المستخدمين من تحت يديه ، وزيد فى القابه أمير الجيوش -
كافل قضاة المسلمين وهادى المؤمنين « . وتبع المفسدين
فقضى عليهم؛ وقتل من أماتل المصريين وقضاتهم ووزرائهم
جماعة ثم خرج الى الوجه البحرى فأسرف فى قتل من هناك
من قبائل لواته واستصفى أموالهم وأفنى طائفة كبيرة من
مفسديهم ونزل الى الاسكندرية وقد ثار بها جماعة فحاصرها
أياما من المحرم سنة سبع وسبعين وأربعمائة الى أن أخذها
عنوة وقتل جماعة ممن كانوا بها ، وعمر جامع العطارين
من مال المصادرات وفرغ من بنائه فى ربيع الأول سنة
٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) ثم سار الى الصعيد فحارب قبائل
جهينة والثعالبة وأفنى أكثرهم بالقتل وغنم من الاموال
كثيرا فصالح حال الاقليم بعد فسادهم ثم جهز الجند لمحاربة
الشام ولم يظفر منها بطائل . . واستناب ولده شاهنشاه
وجعله ولى عهده ، ومات فى ربيع الآخر وقيل فى جمادى
الأولى سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤) بعد أن تحكم فى مصر تحكم
الملوك ولم يبق للمستنصر معه أمر واستبد بالامور وضبطها
أحسن ضبط وكان شديد الهمة موفور الحزم . ودفن خارج
باب النصر شمال مصلى العيد وبنى على قبره تربة جليلة ،
وقام من بعده بالامر ابنه شاهنشاه الملقب بالافضل
ابن أمير الجيوش .

لم يهمل بدر الجمالى مدينة القاهرة فقد وسعها من
حديها الشمالى والجنوبى ، فى عام ١٠٨٧ م سمح بالسكن
فيها ولذلك امتد عمران القاهرة الى أطرافها وخارج أسوارها
وصار يقال لابنية القاهرة خارج أسوارها « ظاهر القاهرة » ،
وأنشئت أخطاط جديدة بعد أن كانت فضاء تشغله
البساتين .

وعلى حافة المقطم أو فى أعلاه ، شيد الوزير بدر الجمالى
مسجدا يعرف اليوم بمسجد الجيوشى وكان ذلك فى عمام
١٠٨٥ وهو يشتمل على مقبرة وكان أول مسجد بنى
بالحجارة فى القاهرة ومئذنة المسجد أقدم المآذن الفاطمية
الباقية فى القاهرة وهى تقوم فى منتصف الضلع الشمالى
ويبلغ ارتفاعها عشرين مترا وتتركب من قاعدة مربعة
وتنتهى بمقرنص يعلوه مربع آخر فمئذنة يحمل قبة

الفصل الثاني

بُناة القاهرة في أيام الأيوبيين

كان يوسف صلاح الدين أحد ضباط الحملة التي أرسلها السلطان نور الدين محمود الى مصر بقيادة الأمير شيركوه الأسدي لطرد الصليبيين منها . وقد نجحت الحملة في تحقيق هدفها ، وكان الخليفة العاضد لدين الله قد استوزر صلاح الدين فأصبح بذلك الرجل الأول في الدولة .

ولما قضى الامر بوفاة العاضد لدين الله عام ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) أبعد الوزير قراقوش جميع الفاطميين عن قصورهم ، واستولى عليها صلاح الدين ، وتسلم ما كان فيها من المال والخزائن والتحف . . وباستيلاء صلاح الدين على مصر (٥٦٧ هـ) سمح للمصريين بسكنى القاهرة بعد أن كانت خاصة بالهلفاء الفواطم وأتباعهم ، وان كان القائد بدر الجمالي من قبل ، قد اذن لمن استطاع البناء أن يعمر ما شاء من القاهرة مستخدما في ذلك أنقاض الفسطاط .

لم ينسج صلاح الدين على منوال من سبقوه في الحكم وأقام ضاحية ملكية على مثال « القطائع » أو « فرساي »

بل عمل شيئا جديدا ، فقد رأى أن يضم تلك الضواحي
ببناء سور حولها ثم يتوجهها بقلعته الشهيرة فوق جبل المقطم
وكانت مدينة مصر بعد أن حرقها « شاور » تحاول النهوض
من رمادها وبقاياها التافهة لتجدد شبابها فوجدت من يأخذ
بيدها لينهض بها - كذلك رأى صلاح الدين أن يجمع معها
تلك النواحي المبعثرة ضمن الضواحي الخربة ويضم اليها
ميناء المقس ثم يلتف السور حولها . وقرر أن يكون بناء
السور من الحجر وأن يمد سور بدر الجمالى الى المقس من
ناحية الغرب والى تلال المقطم من ناحية الجنوب ثم يلتف عند
بقايا مدينة الفسطاط القديمة حتى يمس النيل تقريبا .
ولم يتم هذا المشروع العظيم لأن صاحبه شغل عنه بحملاته
العسكرية فى الشام ، ولا شك مطلقا أن وزيره فى القاهرة
كان مشغولا عنه أيضا بتعبئة الرجال المدربين للقتال
وتدبير المال اللازم لتجهيزهم فلم يقدرا إلا ببناء ما احتاجت
اليه الدولة .

السد العظيم :

ومن أهم أعمال صلاح الدين الدفاعية بناء السد العظيم على
الضفة الغربية للنيل عند الجيزة ويبعد عن مصر سبعة أميال
وقد وصف الرحالة ابن جبير هذا السد بأنه مشروع عظيم
لا يقدم عليه الا ملك متنور ساهر على أحوال رعيته وبلاده ،
وقال عنه انه يحتوى على أربعين عقدا من أكبر الاحجام التى
شاهدها للقناطر ذات العقود وكان على امتداد الجسر المرتفع

المقابل لمصر بعد ستة أميال منه . ولا شك أن بناء مثل هذا السد كان لسبب عسكري هام فكر فيه صلاح الدين فانه لم ينس تاريخ غارات الفاطميين المتوالية على مصر من ناحية الصحراء الليبية حيث كان المغيرون يتقدمون سيرا حتى يصلوا الى شاطئ النيل دون أن يقف في سبيلهم ما يعرقلهم من الحقول أو الجسور . ولهذا رأى صلاح الدين أن يتحصن باقامة هذا السد العظيم .

قلعة صلاح الدين

ولم تكن أسوار صلاح الدين الا صورة منفحة لأسوار بدر الجمالى ، أما القلعة فكانت فكرة مبتكرة . ويحتمل أن يكون الباعث لصلاح الدين على اقامتها بغضه الشديد للخلفاء الفاطميين الشيعة ولقصورهم التي سكنوها فقد لا نشك اذا قلنا ان صلاح الدين على الرغم من قصر مدة اقامته فى القاهرة رغب فى أن يجعل القلعة مقرا لسكناه . ولكى نفسر كيف أراد أن يشيدها كقلعة للدفاع نعود الى حملات صلاح الدين فى سوريا حيث لا تخلو مدينة سورية من قلعتها . فنظر بعينه العسكرية ورأى حاجة القاهرة الى قلعة تحميها فتمت مشيئته .

اختار صلاح الدين المكان لاقامة تلك القلعة التى تحكم القاهرة على ارتفاع لا يقل عن ٢٥٠ قدما ولو أنه كان من ورائها على الجبل مواقع أعلى تحكم موقع القلعة وتشرف

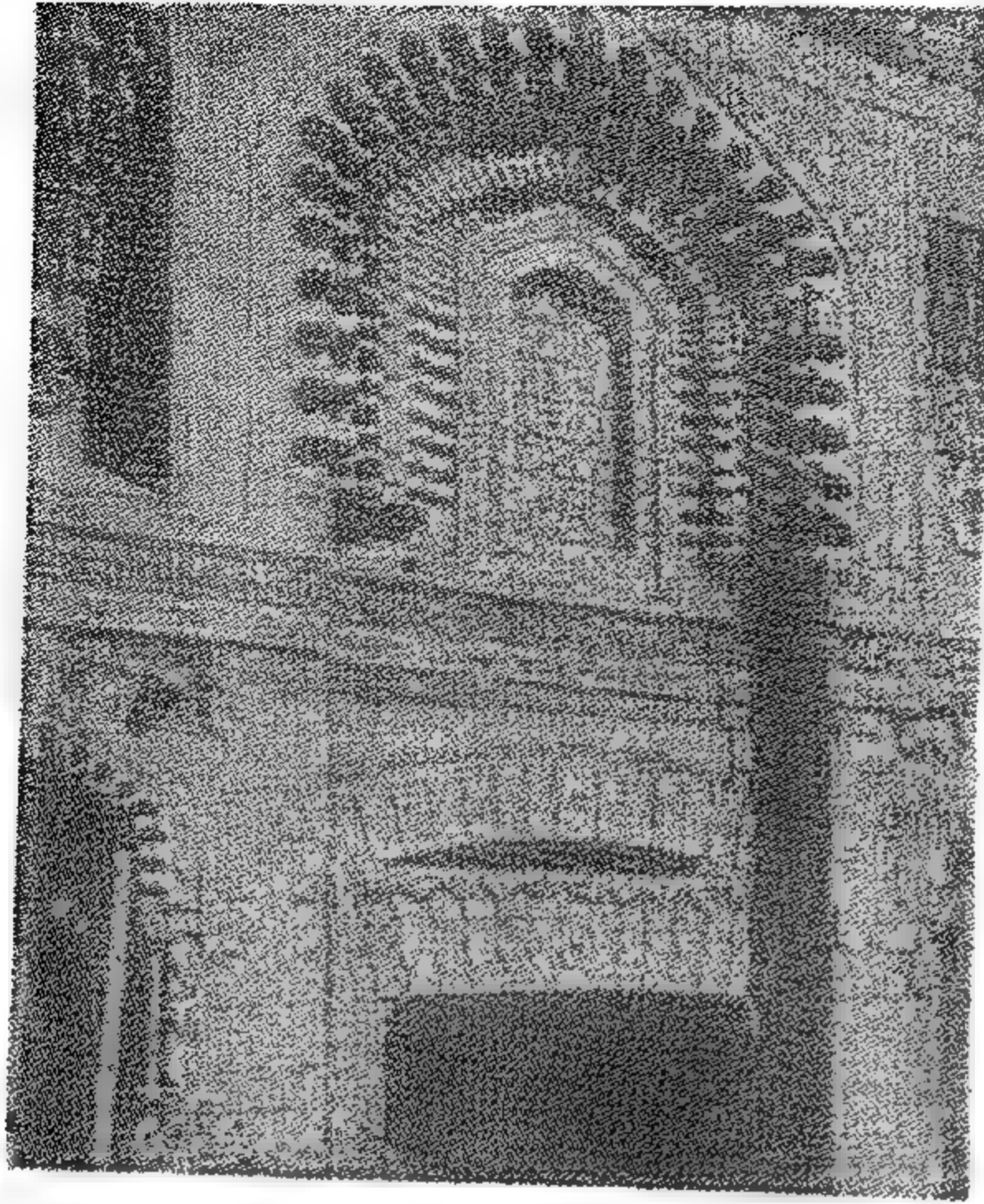
عليها بنيرانها فاننا لا ننسى مكانة الأسلحة الحربية القديمة بجانب الأسلحة الحديثة ، والنتيجة لا تجعلنا نبخس المهندسين العسكريين في القرن الثاني عشر حقهم من الكفاءة والمقدرة في فن العمارة فان عملهم لا يزال واضحاً لزملائهم في القرن العشرين .

وقام صلاح الدين بتنفيذ مشروع بناء القلعة في عام ١١٧٧ م وأقام على عمارتها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي الحصى وأحد أمراءه المخلصين .

ولم ينقض على العمل ست سنوات حتى نقش على الباب المدرج في الضلع الغربي من القلعة ما نقرأه الى يومنا هذا .

« بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة لمحروسة القاهرة التي جمعت نفعا وتحسينا وسعة على من التجأ الى ظل ملكه وتحصينا مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب محيي دولة أمير المؤمنين في نظر أخيه وولي عهده الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد خليل أمير المؤمنين على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش بن عبد الملك المالكى الناصرى فى سنة تسعة وسبعين وخمسائة (أى فى عام ١١٨٣ - ١١٨٤ م) .

مات صلاح الدين قبل أن ينتهى بناء القلعة فأهمـل



واجهة مدرسة الصالح نجم
الدين أيوب ، وتلاحظ فيه
المقرنصات الزخرفية
والكتابات النسخية

العمل مدة الى أن كانت سلطنة الملك الكامل محمد بن الملك
العادل أبى بكر بن أيوب فى قلعة الجبل وأنابه فى حكم
مصر وجعله ولى عهده ، فأتم بناء القلعة وما برح يسكنها
حتى مات فاستمرت من بعده دار مملكة مصر حتى عام
١٨٥٠ - ولقد طرأت على مبانيها تغييرات وإضافات متعددة
ولا ترى فيها اليوم من أعمال صلاح الدين الأولى سوى
بعض أجزاء السور والأبواب .

سور القاهرة

ابتدأ السلطان صلاح الدين عمارة السور الثالث للقاهرة
سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠/٧١ م) وهو يومئذ وزير للخليفة

العاضد لدين الله . وفى عام ٥٦٩ هـ (١١٧٢ / ٧٤) انتدب الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى لعمل السور فبناه بالحجارة كما هو عليه الآن ، وأراد أن يجعل على القاهرة ومصر (مصر القديمة) والقلعة سورا واحدا فزاد فى سور القاهرة الممتد من باب القنطرة الى باب الشعرية ومن باب الشعرية الى باب البحر ومن قلعة المقس فى نهاية السور البحرى على النيل بجانب جامع المقس وانقطع السور من هناك وكان أمله أن يمد السور من المقس الى أن يتصل بسور مصر (مصر القديمة) ثم زاد فى سور القاهرة الجزء الذى يلى باب النصر الى برج الظفر ومن هذا البرج الى باب البرقية ومنه الى درب بطوط والى خارج باب الوزير ليتصل بسور قلعة الجبل فانقطع لوفاة صلاح الدين من مكان يقرب الآن من الصوة تحت القلعة . وقد ذكر المقرئى أن طول السور المحيط فى أيامه بلغ ٢٩٣٠٢ ذراعا (بذراع العمل) وهو الذراع الهاشمى .

شرع صلاح الدين فى سنة ٥٦٦ هـ فى بناء السور الغربى للقاهرة على الحافة الشرقية للخليج المصرى فى محاذاة سور بدر وسور جوهر وعلى بعد قليل منهما الى جهة الغرب وأقام صلاح الدين فعلا قطعة من السور الغربى وهى الممتدة من النهاية الغربية لسور بدر الجمالى البحرى ومتجهة نحو الجنوب الى باب القنطرة الذى أنشأه صلاح الدين فى السور الغربى المذكور تجاه باب القوس الذى كان يعرف بباب الرماحين .

ثم رأى أن يزيد فى سور المدينة البحرى ومدّه الى الغرب ويبنى سورها الغربى على النيل بدلا من الخليج وذلك لكى يدخل فى السور القسم الذى استجد خارج القاهرة فى الجهة الغربية منها بين الخليج والنيل ولكى ينفذ هذا المشروع أوقف بناء السور الغربى على الخليج بعد باب القنطرة .

وفى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ / ٧٤ م) شرع بهاء الدين قراقوش فى مد السور البحرى من باب الشعرية الى باب البحر بالمقس وأتمه فعلا وأراد أن يبنى السور الغربى للقاهرة على النيل من باب البحر الى فم الخليج ليوصل سور القاهرة بسور مصر القديمة ولكن وفاة صلاح الدين حالت دون ذلك .

وقد اندثر أغلب سور صلاح الدين والباقي منه مبين على خريطة للقاهرة وضحت عليها الآثار الاسلامية بألوان مختلفة طبعتها مصلحة المساحة بإشراف لجنة حفظ الآثار العربية .

صلاح الدين يبنى قبة الامام الشافعى

لما توفى الامام الشافعى فى سنة ٢٠٤ هـ (٨١٩ م) دفن بتربة أولاد ابن عبد الحكم . وفى عام ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) شيد السلطان صلاح الدين الأيوبى تربة الشافعى ، وبنى بجوارها المدرسة الصلاحية . وفى سنة ٥٧٤ هـ (١١٧٨ م) فرغ من عمل التابوت الحشبى الذى يعلو تربة الشافعى ،

وهذا التابوت صنع من خشب الساج الهندي المقسم الى
حشوات هندسية منقوشة ومكتوب عليها آيات قرآنية ،
وترجمة حياة الشافعي واسم الصانع الذي قام بعمله وذلك
بالخطين الكوفي ، والنسخ الايوبي . ولما توفيت والدته الملك
الكامل بن العادل سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١م) شيد الكامل قبة
كبيرة ضمت الى قبر الشافعي وقبر أولاد ابن عبد الحكم
وأفراد الأسرة الأيوبية ثم أجرى الماء اليها من بركة الجيش
وكان الفراغ من انشائها في يوم الأحد ٧ جمادى الأولى
سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١) ثم أنشأ تابوتا من الخشب فوق
تربة والدته لا يقل دقة عن تابوت الشافعي .

والملك الكامل محمد هذا هو منشئ دار الحديث الكاملية
الجليلة في النحاسين ، وكان ذلك في عام ٦٢٢ هـ (١٢٢٥م)
وتقع بقايا الدار الكاملية على الجانب الغربي لسوق النحاسين
والى الناحية الشمالية لمدرسة وضريح السلطان برقوق .

منشآت الملك الصالح نجم الدين :

وتنسب الى الملك الصالح نجم الدين الأيوبي المدرسة
الصالحية التي وضع أساسها في ١٤ ربيع الأول سنة ٦٤٠ هـ
(١٢٤٢) وبدأت الدراسة فيها في العالم التالى وذلك
بالرغم من ضخامة بنائها ، وقامت على موضع القصر الفاطمي
الشرقي وكان أول من درس بها في المقابلة قاضي القضاة
شمس الدين أبو بكر . وتعتبر مئذنة المدرسة نموذجاً

فريدا للمآذن الأيوبية ولها مكانتها من ناحية التطور المعماري للمئذنة .

وشيد الملك الصالح فى أقصى جنوب القاهرة ، وفى جزيرة الروضة ، قلعة منيعة فى عام ٦٣٨ هـ (١٢٣٩م) وعمل لها ستين برجاً وبنى فيها مسجداً وغرس بداخلها أنواعاً شتى من الأشجار وشحنها بالسلاح والازواد وكانت هذه القلعة تشغل مساحة من الأرض لا تقل عن ٦٥ فدانا . ومنذ ذلك الحين شيد الناس المساكن فى الجزيرة وأصبحت من المناطق الآهلة بالسكان .

بناء القلاع والأسوار

قراقوش بن عبد الله الأسدى الملقب ببهاء الدين

ومن عسى أن يكون هذا الأمير الذى اختاره صلاح الدين الأيوبي من صفوة الأمراء ليشيد أسوار القاهرة ويبنى قلعة الجبل والسد العظيم . اتصل الفتى الرومى بأسد الدين شيركوه عم صلاح الدين فى دمشق ، وكان أسد الدين وأخوه نجم الدين أيوب فى خدمة ملك عظيم من آل زنكى ، هو عماد الدين ثم مات هذا الملك وخلفه على الحكم فى الشام ولده نور الدين محمود ، فقرب هذين الضابطين الأخوين انتفع بخدمتهما وبعد سنوات أعتق أسد الدين قراقوش وأصبح ينسب إليه ، فيقال قراقوش بن عبد الله

الأسدي . ولما مات أسد الدين اتصل الضابط قراقوش
بخدمة ابن أخيه صلاح الدين فصار يدعى بهاء الدين بن
عبد الله الأسدي الناصري . وكان هذا الفتى قد أتى الى
مصر ضمن الحملة التي أوفدها نور الدين للتدخل في
شئون مصر أيام التهديد الصليبي ، فذهب اليها أسد
الدين ومعه ابن أخيه صلاح الدين وقراقوش وشاهد الثلاثة
انهيار الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية ، وهكذا أصبح
هذا الفتى الجندى من أهم دعائم الدولة الفتية الجديدة .

وفي عام ٥٦٤ هـ (١١٦٨م) اضطرب رجال القصر
الفاطمي وسعى بينهم من حذرهم عاقبة وزارة صلاح الدين ،
ووقفهم على نيات هذا الرجل الخطير وأهمها إزالة الدعوة
الفاطمية وإقامة الدعوة العباسية ثانية .

في تلك الآونة أخذت المؤامرات تظهر واحدة فواحدة،
وكانت أولها مؤامرة داخل القصر الفاطمي ، دبرها خصي
أسود اسمه « عبد المؤمن » ، أراد بها إسقاط صلاح الدين
والقضاء على جنده وعلى من أتوا معه من أهله وعشيرته .
وكاد النجاح يكتب لهذه المؤامرة لولا ذكاء القاضي الفاضل
من ناحية ، ولولا سيف الملك شمس الدولة بن أيوب وهو
الأخ الأكبر لصلاح الدين من ناحية ثانية .

في هذه الآونة فكر عبد المؤمن ورجاله أن يملئوا
أيديهم من ذخائر القصر الفاطمي التي توشك أن تضيع منهم

الى الأبد ، وكان من أغراضهم فى ذلك أن يستعينوا ببعض ثمنها على تشجيع الجند ، وتوفير المال اللازم لرجال المؤامرة . عرف ذلك الوزير صلاح الدين ، فلم يمض وقت طويل حتى هداه تفكيره الى خادمه الأمين ، وصديقه الغيور ، بهاء الدين قراقوش ، فجعله متولى القصر الفاطمى ، يحرسه ويصون ذخائره ، فقام على حراسته بعين لم تمكن أحدا من أولئك المتآمرين من أخذ شىء من ذخائره ، على كثرتها ودقتها وسهولة حملها وامكان اخفائها .

قراقوش ينشئ الأعمال الحربية

كان بين الحكومتين الفاطمية والأيوبية فروق ، يمكن أن ترد كلها الى سبب واحد ، هو أن حكومة الفاطميين كانت حكومة مدنية ، أما حكومة السلطان صلاح الدين فكانت حكومة عسكرية ، عنيت الأولى منهما بنظام الدواوين واستكثرت فيها من الكتاب والموظفين ، على حين اكتفت الثانية بعدد يسير من هذه الدواوين ، ومن الموظفين ، واستأثرت الحرب بجزء عظيم من عناية الدولة الأيوبية ، وذلك أن مهمة هذه الدولة انحصرت يومئذ فى شيئين هما : التغلب على مذهب الشيعة فى داخل مصر ، ثم احراز النصر النهائى على الفرنج واجلاؤهم عن القدس .

من أجل ذلك احتاج السلطان صلاح الدين الى منشآت حربية ومدنية، كان من أهمها اذ ذاك اقامة الجسور، وتطهير

الترع ، وتشبيد القلاع والأسوار المحيطة بالبلاد ، لتقيها
شر الغارات التي تأتي اليها من جانب الفرنج تارة والشيعة
المنبثين في بقاع كثيرة من العالم الاسلامي تارة أخرى .

ومن لهذه المشروعات الحربية العظيمة غير الأمير بهاء
الدين قراقوش ، يبذل فيها جهده ، وتعينه على البذل طبيعة
له عرفت بالصبر وبالجلد ، ثم مواهب هندسية سرعان
ما كشف عنها صلاح الدين وأفاد منها في حروبه فائدة ليس
الى انكارها من سبيل .

لعل أول ما أقام الأمير من ذلك قلعة الجبل ، بناها
على قطعة مرتفعة تنفصل من جبل المقطم ، وتشرف منها
على القاهرة كلها ، ثم بناؤها في عهد الملك الكامل من ملوك
بنى أيوب ، واتخذت منذ ذلك اليوم مقرا للحكومة ، واستمر
الحال على ذلك الى زمن محمد علي باشا . ثم لم يكن الا في
عهد اسماعيل أن انتقلت دواوين الحكومة الى دور أخرى وسط
القاهرة . غير أنه ما كاد الأمير قراقوش يفرغ من بناء قلعة
الجبل ، حتى اشتغل في بناء قلعة أخرى يقال لها قلعة المقسى
وهي برج كبير بناه الأمير على النيل . وبنى بالقرب منه
أبراجا أخرى . ثم ما كاد الأمير يستريح أيضا من بناء
هذه الأبراج والحصون ، حتى شغل نفسه بمشروع آخر
هو اقامة سور عظيم حول مصر والقاهرة ، قطع الحجازة
من الأهرام الصغيرة وبناه - تجاه الجزيرة على مسافة بعيدة
منها .

أقبل الأمير قراقوش على بناء السور ، وحفر في
القلعة بئرا وكانت هذه البئر من عجائب الأبنية ، يدور البقر
من أعلاها ، وينقل الماء من وسطها ، وتدور أبقار أخرى في
وسطها ، فينقل الماء من أسفلها ، وجميع ذلك حجر منحوت
ليس فيه بناء . وقيل ان أرض هذه البئر مسامطة لأرض
بركة الفيل ، وان ماءها كان عذبا في أول الأمر ، ثم أراد
قراقوش الزيادة في مائها ، فوسعها ، فخرجت منها عين
مالحة ، غيرت حلاوتها (١) .

وكان هذا السور الذي بناه قراقوش هو ثالث الأسوار
التي أحاطت بالقاهرة الى عهده .

عند ذلك كتب القاضي الفاضل الى السلطان صلاح
الدين رسالة طويلة منها قوله : « والله يحيى المولى حتى
يستدير بالبلدين نطاقه ، ويمتد عليهما رواقه ، فما عقيلة
كان معصمها ليترك بغير سوار ، ولا خصرها ليتحلى بغير
منطقة نضار . والآن قد استقرت خواطر الناس ، وآمنوا
من يد تتخطف ، ومجرم يقدم ولا يتوقف . . » فلما قرأ
السلطان الرسالة سر بها وبخادمه بهاء الدين قراقوش ،
وعلم أن الله تعالى يريد بدولته خيرا ، اذ قيض لها مثله ومثل
وزيره القاضي الفاضل .

(١) د. عبد اللطيف حمزة : حكم قراقوش . مطبعة مصطفى
البابى الحلبي ، القاهرة .

بذلك أصبحت لقراقوش خبرة بمثل هذه الأعمال الحربية الجذيلة ، وكان السلطان كلما احتاج الى عمارة قلعة ، أو تجديد حصن ، أو تقوية جسر أو اقامة سور ، أو بناء برج ، عهد اليه فى هذا العمل ، فقام به على خير طريقة .

ولعل آخر ما قام به من ذلك عمارته لسور عكا عام ٥٨٥ هـ ١١٨٩ م ، وذلك فى أثناء المحنة الكبرى التى مرت به وبالمسلمين .

قراقوش الجندى فى حصار عكا :

كان قراقوش جنديا له شخصيته البارزة فى الجيش ، غير أنه كان ذا ميول حربية هندسية ، عرفها السلطان صلاح الدين ، فكان يؤثر أن يتركه لهذه الأعمال التى ذكرنا طرفا منها . . ويذهب هو الى القتال ومعه قواده وأبطاله ممن كانوا يحسنون الكر والفر فى الميدان . من أجل ذلك لم نسمع عن بهاء الدين قراقوش أنه اشترك فى حرب للسلطان الا حين كان يدعو السلطان الى اقامة الاسوار ونحوها ، فاذا ذاك لا يجد الأمر بدا من الذهاب معه .

ومضت السنون ، وانتصر السلطان صلاح الدين على الفرنج ، واستولى منهم على بيت المقدس ، ثم تقدم فى فتوحه ، حتى يسر الله له فتح حصن من أكبر حصون الفرنج ، وهو حصن عكا ، فملك السلطان هذا الحصن المنيع ، ولكن بعد أن دفع فيه الثمن غاليا ، من المال

وبالأنفس ، واستشهد فى ذلك اليوم أخ للفقيه عيسى
الهكارى وأتى الناس يعزونه ، فأنكر عليهم ذلك وقال
« هذا يوم الهناء ، لا يوم العزاء » .

وكان سور المدينة قد تهدم من شدة القتال ، فرأى
السلطان أن يترك المدينة والحصن للأمير قراقوش ، ويذهب
هو لامتلاك الحصون الأخرى ، قبل أن يجمع الفرنج شملهم ،
أو يأتيهم المدد من ملوكهم فيما وراء البحر . فبقى الأمير
فى هذه المدينة ، وبقيت معه حامية ليست بالكبيرة ، وسهر
فى اقامة ما تهدم من السور وعكف على عمله هذا بهمة ،
وهو واثق من أمر الله الذى وهب للمسلمين النصر حتى
ملكوا هذا الحصن ، ولكن حدث مالم يكن فى الحسبان حدث
أن الفرنج بعد انهزامهم اجتمعوا فى حصن آخر من
حصونهم ، واتفقوا على أن يذهبوا بجموعهم الى عكا ، حيث
يظلون محاصرين لهذه المدينة ، أو يأتيهم المدد الذى طلبوه
من بلادهم ، وكان قصد الفرنج من ذلك أن يشغلوا بهذا
الحصار بال المسلمين ، فقد أصبح بينهم وبين أن يتردوا
الفرنج من البلاد نهائيا ، أن يأخذ المسلمون منهم بضعة
حصون كانت لهم على الساحل .

فضرب الحصار على عكا عامين ، ذاق فيهما الأمير
والمسلمون معه الأمرين بل ذاقوا هناك أقسى ما عرفتة المحنة
الصليبية من ألم ، حتى لقد نفدت الأقوات من المدينة ،
وكان على المسلمين أن يمدوا اخوانهم فيها بالطعام والميرة

ولكن الفرنج كانوا كثيرا ما يحولون بينهم وبين هذا العمل .
الذى تتوقف عليه حياة المسلمين في هذه المدينة البائسة .
فانتشر فيهم الجوع وفقر الوباء فاه ، والعدو مع ذلك يمطر
رجال الحامية وابلا من عذابه من خارج الحصن .

كل ذلك والأمير بهاء الدين قراقوش يصبر ويتجلد ،
وكلما فكر جنده في التسليم للعدو مناهم وأملهم وشهد
عزائمهم ، وما يزال بهم حتى يرجعوا عن هذا العزم ،
ويتقدمون شجعانا كعادتهم لآخافة هذا الخصم .

ومع ذلك شاعت الاقدار أن يخذل هذا الأمير الصابر ،
في الدفاع عن نفسه وشرفه وجنده في هذه المحنة القاسية .
فأتى المدد الى الفرنج من ملوكهم فيما وراء البحر ، ووقف
ملوك الصليبيين صفوا واحدا أمام جيش صلاح الدين ،
فوهن المسلمون يومئذ ، ودخل الملوك المسيحيون عكا .
وانهالوا على أهل المدينة نهبا وذبحا وأسرا . وكان الأمير
نفسه ممن أسروا ، وبقي في الأسر حتى أفرج عنه حين عقد
الصلح . وكان يوم الافراج عنه يوم سرور عظيم . ، اذ
فرح به السلطان الفرع كله ، لما كان له عليه وعلى الاسلام
كله من الحقوق ، فبقى الأمير الى جانب السلطان لم يفارقه
حتى فارق السلطان هذه الدنيا . وكان الافراج عنه في يوم
الثلاثاء ١١ شوال سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م) وعاد الى مصر
حيث توفي في مستهل رجب سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م)
بالقاهرة .

الفصل الثالث

القاهرة في أيام دولة المماليك وبعدها

يمكن القول بأن العصر الذهبي للقاهرة هي الفترة التي حكمت فيها دولة المماليك (١٢٦٠ - ١٥١٧ ، ولاسيما بعد ما انتهت الحروب الصليبية في الشام عام ١٢٩١ وخف الضغط المغولي عقب انتصار المماليك ، ففي أيام السلطان الظاهر بيبرس امتدت القاهرة في اتجاه الشمال خارج الأسوار في حي الحسينية . فقد شيد الظاهر مسجدا رائعا في ميدان قره قوش يعرف اليوم باسم جامع الظاهر وكان اسمه قديما جامع الصافية . وقد شيد الظاهر في قلعة صلاح الدين عديدا من المباني الجميلة كدار الذهب، وأنشأ سوقا للخيل كما أنشأ جسرا كبيرا يصل بين بركتين كبيرتين بالقاهرة وأهم من كل ذلك أنه أقام قناطر السباع على الخليج الكبير ، بالقرب من مسجد السيدة زينب وكان هذا الخليج المتصل بالنيل من أهم معالم القاهرة في العصور الوسطى . ولا ننسى أن أمراء الظاهر شاركوه في بناء كثير من العماثر والرباع والخانات والدور والمساجد والحمامات التي أضافت مسحة من الجلال والجمال على تلك المدينة .



الباب الغربى لمسجد الطاهر بمكة

اتسعت القاهرة في أيام أسرة قلاوون النى حكمت
مصر حوالى المائة سنة ، ولا سيما في عهد السلطان الناصر
محمد بن قلاوون وأمراؤه وقادة جيشه ، فامتدت المدينة
جبه الشمال عبر الصحراء والشمال الغربى والغرب أيضا
بما طرحه النيل من أرض جاء بها الطمي فتحول مجراه
تدريجيا من الشرق الى غرب القاهرة . ولم يترك الممالك
قطعة أرض داخل القاهرة الفاطمية أو خارجها فى شمالها
أو جنوبها حتى أقاموا فيها المساجد والمدارس والأضرحة
والحمامات والسبل والوكالات ، فكان الاقبال على البناء
والتعمير فى عصر الممالك لامثيل له بالرغم من انشغالهم
بمحاربة المغول والصليبيين . فقد عم الرخاء فى أيامهم
وتوفر المال فى خزائهم بما كانت تعود به التجارة مع
الشرق والغرب وما كانوا عليها من المكوس ولذلك تسابق
السلاطين والأمراء والأعيان فى إقامة أفخم المساجد وأروع
القصور والدور التى حشدوا فيها التحف النادرة . وما
زالت طائفة كبيرة من هذه الدور نشاهدها فى أنحاء
القاهرة .

كانت أيام القاهرة فى عصر الناصر محمد بن قلاوون
عصرا ذهبيا دون شك . فقد أحب هذا السلطان العمارة
فأخذ هو وأمراؤه فى ترصيع القاهرة بمجموعة المباني التى
قلما تجتمع فى أية مدينة وفى عصر واحد . انشأ الناصر
تحت قلعة صلاح الدين ميدانا فسيحا للألعاب والمسابقات
بين الأمراء ، وعمر كثيرا من القصور فى داخل القلعة كما

شيد فيها جامعة ذا المئذنتين وهو مازال ناهضا فيها، وبنى بالقلعة دورا للأمراء الذين زوجهم لبناته وأجرى اليها المياه العذبة .

ومن أهم أعمال الناصر محمد حفره الخليج الناصري في غرب القاهرة حتى أوصله الى سرياقوس وكان يتصل بالخليج الكبير القديم وذلك لزيادة الماء فيه وكان هذا الخليج يبدأ من موردة البلاط ويمر بأراضى اللوق وبركة قرموط وباب البحر ثم أرض الطبالة (بالقرب من الفجالة) وعندها يصب في الخليج الكبير. وقد انتهى حفره في شهرين فقط ! وما نذكره أن أرض الطبالة كانت من أجمل متنزهات القاهرة وكانت تمتد في المنطقة التي على جانب الخليج الغربى وتغطي اليوم جزءا من حى الظاهر وجنوب شارع الفجالة وشرقها شارع الخليج المعروف اليوم ، وجدير بالذكر أن « الطبالة » هو اسم مغنية الخليفة المستنصر بالله الفاطمى وكان وهبها أراضى تلك المنطقة !

وفى أيام السلطان الناصر محمد وفد على مصر أمير الرحالين المسلمين ابن بطوطة وكان ذلك فى عام ١٣٢٦ وقد وصف فى رحلته البلدان المصرية التى مر بها وخص القاهرة بنصيب الأسد ، فقال :

« وصلت الى مدينة مصر (كانت تعرف القاهرة بمصر كما هو الحال اليوم) وقرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات

الاقاليم العريضة والبلاد المتناهية فى كثرة العماره المتناهية
بالحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط رحل
الضعيف والقادر ، وبها ما شئت من عالم وجاهل وجلد
وهازل ، وحليم وسفيه ، ووضع ونبه وشريف ومشروف ،
ومنكر ومعروف ، تموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق
بهم على سعة مكانها وامكانها • شبابها يجد على طول العهد
وكوكب تعاليها لا يبرح عن منزل السعد ، قهرت فاهرتها
الأمم وتملكت ملوكها نواصى العرب والعجم ، ولها خصوبة
النيل التى جل خطرها وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها ،
وأرضها مسيرة شهر لمجد السير • كريمة التربة مؤنسة
لنوى الغربية •

وجدير بالذكر أنه فى أثناء حكم المماليك البحرية ،
وبالتحديد فى عام ١٣٦٤ ، ولد المؤرخ أحمد بن على المقرئ
الذى قدر له أن يؤلف موسوعة هامة عن خطط مصر وعن
القاهرة بوجه خاص ، أتاحت لنا التعرف على ما كانت عليه
القاهرة ومبانيها منذ أسست حتى القرن الخامس عشر ،
ووصف مساجدها ومدارسها وحماماتها • الخ وبعضها
باق الى اليوم يتحدث عن جمال عماره القاهرة وفنونها
البديعة •

بناء القاهرة المملوكية

يقابلنا السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى فى

طليعة بناء القاهرة على أيام دولة المماليك الأولى (البحرية) .
وأثر هذا العاهل العظيم في امتداد القاهرة خارج الأسوار
الشمالية كان بداية توسع القاهرة في هذا الاتجاه .

ففي ميدان قراقوش بنى الظاهر بيبرس مسجده
الفخم الذى يعرف اليوم بمسجد الظاهر ويعتبر من أجمل
العمائر المملوكية وكان اسمه جامع العافية ، بناه فى سنة
٦٦٥ هـ (١٢٦٦) ويبلغ مسطحة ١١٨٨٠ مترا مربعا وهو
ما يقرب من ثلاثة أفدنة وقد تعذر الصرف على هذا المسجد
منذ القرن السادس عشر بسبب سعته ثم تخرب وسقطت
قبته الكبيرة التى كانت فوق ايوان المحراب ، ثم سقطت
مئذنته ولم يبق منه الآن سوى جدران الخارجية .

وكان الظاهر بيبرس بنى مدرسته الظاهرية فيما بين
عامى ٦٦٠ - ٦٦٢ هـ (١٢٦٢ - ٦٣) وقد بقى جزء صغير
منها وعليه اسم منشئها وتاريخ انشائها - وتقع بجانب قبة
الملك الصالح نجم الدين أيوب من الجهة الشمالية بشارع
المعز لدين الله . وكان لهذه المدرسة باب جميل من النحاس
ليس له مثيل فى صنعه وحسن اتقانه وجمال زخرفته ،
منقوش عليه اسم الملك الظاهر بيبرس وسنة ٦٦١ هـ
(١٢٦٢ / ٦٣) التى صنع فيها .

يحدثنا ابن تغرى بردى فى كتابه (١) عما بناه

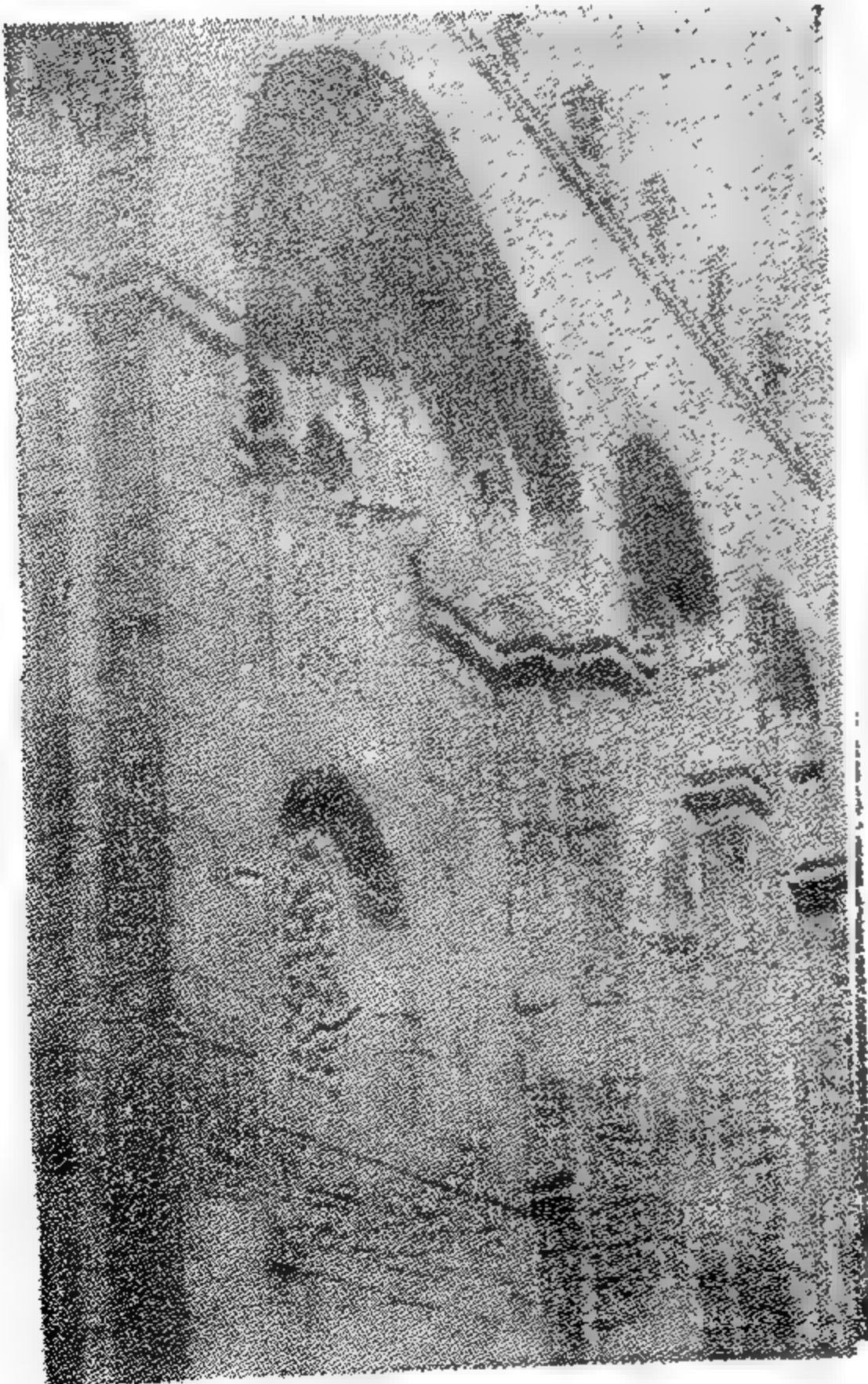
(١) النجوم الزاهرة : جزء ٧ ، ص ١٩٠ - ١٩٢ .

الظاهر بيبرس خلال مدة حكمه فيقول : « وأما مبانيه فكثيرة
٠٠ وعمر بقلعة الجبل دار الذهب ، وبرحبة الحبارج قبة
عظيمة محمولة على اثني عشر عموداً من الرخام الملون ، وصور
فيها سائر حاشيته وأمرائه على هيئتهم ، وعمر بالقلعة أيضاً
طبقتين مطليتين على رحبة الجامع (هدمه فيما بعد الناصر
محمد) وأنشأ برج الزاوية المجاورة لباب القلعة (الباب
المدرج) وأخرج منه رواشن ، وبني عليه قبة وزخرف سقفها ،
وأنشأ جواره طباقاً للممالك أيضاً ، وأنشأ برحبة باب
القلعة داراً كبيرة لولده الملك السعيد ٠٠٠ وأنشأ دوراً كثيرة
بظاهر القاهرة برسم الأمراء ٠٠ وأنشأ حماماً
بسوق الخليل لولده الملك السعيد ، وأنشأ الجسر الأعظم
والقنطرة التي على الخليج وأظنها قنطرة السباع (ميدان
السيدة زينب) وأنشأ الميدان بالبورجى وأقام به المناظر
والقاعات ، وجدد جامع الأنوار (الأقمر) ، والجامع
الأزهر ، ٠٠٠ وعمر بالمقياس قبة رفيعة ، وأنشأ عدة جوامع
بالديار المصرية . »

وفضلاً عن ذلك ، فقد شجع الظاهر بيبرس القيام
بالأعمال العامة ، فشيد أمراًؤه المساجد وأسسوا المعاهد
الدينية وأصلحوا الثغور والمعازل وزاد في استتباب الأمن
في مملكته بترتيب خيل البريد ، فكانت تصل الأخبار
بسرعة بين حاضرة البلاد ودمشق .

السلطان المنصور قلاوون

هو البناء الأول فى أسرة آل قلاوون التى حكمت حوالى
المائة سنة ، وقد حكم المنصور قلاوون حتى توفى وهو فى
السبعين وكان ذلك فى ١٠ نوفمبر ١٢٩٠ . مات وقد خلف
طائفة من العمائر النادرة التى رصع بها حى الجمالية ، نذكر
منها مدرسة الجبليلة وقبته أى ضريحه وأخيرا بيمارستانه
الفريد (مستشفى) ، الذى كان مفخرة العالم الاسلامى .
بدىء فى بناء البيمارستان فى أول ربيع الثانى سنة
٦٨٣ هـ (١٢٨٤) ، وتم انشاؤه بعد ثمانية أشهر ، ومازال
جزء منه قائما الى اليوم ، وقد جدد عام ٧٢٦ هـ (١٣٢٦)
أيام الملك الناصر محمد بن السلطان قلاوون ، وجده مرة
أخرى الأمير عبد الرحمن كتحدا . وصفه المؤرخ المقرئى :



واجهة مسجد وضريح
السلطان قلاوون

انه دار ذات ايوانات أربع وصحن واسع ، ولما أنجزت
عمارتها وقف عليها الملك المنصوري . وقال : قد وقفت هذا
على مثلى فمن دونى وجعله وقفا على الملك والمملوك والجندي
والأمير والكبير والصغير والحر والعبد والذكور والاناث .
ورتب فيه العقاقير والأطباء وسائر ما يحتاج اليه من به مرض
من الأمراض ، وجعل به فراشين من الرجال والنساء لخدمة
المرضى ، وقرر لهم المعاليم ونصب الأسرة للمرضى وفرشها
بجميع الفرش المحتاج اليها فى المرض ، وأفرد لكل طائفة
من المرضى موضعا ، فجعل أووين الماريستان الأربعة
للمرضى بالحميات ونحوها ، وأفرد قاعة لمرضى الرمد ، وقاعة
للجرحى وقاعة لمن به اسهال وقاعة للنساء ، ومكانا
للمبردين ، يقسم بقسمين ، قسم للرجال وقسم للنساء .
وجعل الماء يجرى فى جميع هذه الأماكن وأفرد مكانا لطبخ
الطعام والأدوية والأشربة ، ومكانا لتركيب المعاجين والأكحال
والشيفات ونحوها . ومواضع يخزن فيها الحواصل .
وجعل مكانا يفرق فيه الأدوية والأشربة ، ومكانا يجلس فيه
رئيس الأطباء لالقاء دروس الطب ولم يحص عدد المرضى
بل جعله سبيلا لكل من يرد عليه من غنى وفقير . ولم يحدد
مدة لاقامة المريض به بل يرتب منه لمن هو مريض بداره
سائر ما يحتاج اليه . وقد أوقف عليه الملك المنصور من
الأمالك بديار مصر وغيرها ما يقارب ألف ألف درهم فى
كل سنة .

وقد عمل فى هذا المستشفى عدد كبير من أشهر أطباء مصر ، نذكر من بينهم : ابن الاكفانى محمد بن ابراهيم ، عمر بن منصور بن عبد الله السراج (ت ١٤٣١) عبد الوهاب ابن محمد تاج الدين الشاوى (ت ١٤٤٧) ، زين الدين عبد المعطى كبير جراحى الماريستان ، شهاب الدين بن الصايغ ، مدين بن عبد الرحمن القيسونى وغيرهم .
وعندما زار الرحالة ابن بطوطة مصر فى عام ٧٢٧هـ / ١٣٢٧ ، شاهد الماريستان المنصورى ، فقال عنه : « أما الماريستان الذى بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون ، فيعجز الواصف عن محاسنه ، وقد أعد فيه من المرافق والادوية ما لا يحصى ويذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم » .

وقد ذكر هذا المستشفى كثير من الرحالة الأجانب الذين وفدوا الى مصر فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر . والجدير بالذكر أن الملوك والأمراء تعهدوا هذا المستشفى الجليل بالعمارة والاصلاح والتجديد والانفاق عليه بسخاء الى أيام حملة بونايرت . وبالرغم مما أدخل على العلاج الطبى الحديث فى مصر خلال القرن التاسع عشر ، فقد استمرت أبواب هذا الماريستان مفتوحة حتى بداية القرن الحالى الى مستشفى للرمم ويعرف اليوم بمستشفى قلاوون ، فهو اذن أقدم مستشفيات العالم .

الناصر محمد بن قلاوون

البناء العظيم

تولى سلطنة مصر ثلاث مرات . كانت السلطنة الاولى
فى عام ٦٩٣ هـ (١٢٩٣)، والسلطنة الثانية فى عام ٦٩٨ هـ
(١٢٩٩) ، والسلطنة الثالثة فى عام ٩٠٧ هـ (١٣٠١)
وقد دامت هذه المرة حتى عام ١٣٤١ .

كان الناصر محمد بن قلاوون يحب العمارة ، فلم يزل
منذ ان قدم من الكرك بالأردن الى أن مات مستمر العمارة ،
فجاء تقدير مصروفه كل يوم مدة هذه السنين ثمانية آلاف
درهم وكان ينفق على العمارة المائة ألف درهم ، فاذا رأى
فيها مالا يعجب هدمها كلها وجدها على ما يختار .

وننقل للقراء صفحة فى حركة التعير والبناء فى عصر
هذا السلطان البناء (١) وبخاصة فى القاهرة :

« أنشأ الناصر محمد الميدان تحت القلعة وأجرى له
المياه ، وغرس فيه النخل والأشجار ولعب فيه بالكرة
فى كل يوم ثلاثاء مع الأمراء والمحاصـكية ، وعمر القصر

(١) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، القسم الثانى من
الجزء الثانى ص ٥٢٧ - ٥٤٥ نشره وحققه الدكتور محمد مصطفى
زيادة . انظر المجلة المصرية للدراسات التاريخية المجلدان ٩ و ١٠
ص ٢٤١ - ٢٥٠ عام ١٩٦٠ - ١٩٦٢ .

الأبلىق (١) وعمر الجامع بالقلعة والقاعات السبع (٢) التى تشرف على الميدان وباب القسرافة لاجل سكنى سراريه وعمر المطبخ ، وجعل عمائره كلها بالحجارة خوفا من الحريق وعزم أن يغير باب القلعة المعروف بالمندرج ، ويعمل له دركاه فمات قبل ذلك وعمل فى القلعة حوش الغنم وحوش البقر . . . وغير ذلك فأوسع فيها نحو خمسين فدانا وعمر الخانكاه بناحية سرياقوس ورتب بها مائة صوفى ، لكل منهم الخبز واللحم والطعام والحلوى وسائر ما يحتاج اليه ، عمر القصور بالقرب منها ، وعمل لها بستانا حمل اليه الأشجار من دمشق وغيرها فصار به عامة فواكه الشام ، وحفر الخليج الناصرى خارج القاهرة (٣) حتى أوصله الى سرياقوس ، فعمر على هذا الخليج عدة قناطر : منها قنطرة بقمه (أى فم الخليج) عند الميدان أنشأها الفخر ناظر الجيش ، وقنطرة قدادار والى القاهرة وغير ذلك فصار بجانبى

-
- (١) أنشأه الناصر محمد فى ٧١٣ هـ / ١٣١٣ وانهت عمارته سنة ٧١٤ / ١٣١٤ وقد اندثر القصر وكان قائما فى الجهة الغربية من القلعة .
- (٢) كانت القاعات السبع بالقلعة تشرف على باب القسرافة ومكانها اليوم قصر الجوهرة (الخطط المقرئية ج ٢ ص ٢١٢) .
- (٣) أمر الناصر بحفره ليصل بين النيل وخليج القاهرة (المصرى) وذلك ليزيد الماء فى هذا الخليج وكان فمه بموردة البلاط من بستان الخشاب مارا بأراضي اللوق وبركة قرموط وباب البحر ثم أرض الطبالة وعندها يصب الخليج ماءه فى خليج القاهرة ، بدىء فى حفره فى أول جمادى الاولى ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ وتم حفره فى شهرين (النجوم الزاهرة ، حاشية ج ٩ ص ٨٠) .

الخليج عدة بساتين وعمرت به أرض الطبالة بعد خرابها
من أيام العادل كتبغا في سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ / ٩٧ م)
وبقيت خرابا الى ما بعد سنة ٧١١ هـ (١٣١١ م) حتى أخذ
الناس في سكناها تدريجيا .

وعمرت في أيام السلطان الناصر جزيرة الفيل وناحية
بولاق بعد ما كانت رمالا ترمى بها الممالك النشاب وتلعب
الأمراء فيها بالكرة فصارت كلها دورا وقصورا وجوامع
وأسواقا وبساتين وبلغت البساتين بجزيرة الفيل زيادة على
مائة وخمسين بستانا بعد ما كانت نحو العشرين بستانا ،
واتصلت العمارة على ساحل النيل من منية السيرج الى جامع
الخطيرى الى حكر ابن الأثير وزربية قوصون الى منشأة الكتبة
ومنشأة المهراني (١) الى بركة الحبش حتى كان الانسان
يتعجب لذلك ، فانه كان هذا كله تلال رمل وحلفاء فصارى
لا يرى فيه قدر ذراع الا وفيه بناء .

وعمرت في أيام الناصر محمد القطعة التي فيما بين
قبة الامام الشافعى الى باب القرافة (٢) بعد ما كانت فضاء

(١) كان موضع هذه المنشأة فيما بين النيل والخليج المسمى ،
عرفت هذه الخطة باسم الامر سيف الدين بلبان المهراني وكان قد
شيد دارا بها ثم اقبل الناس في البناء واكثروا فيها من العمائر
فعمرت الخطة .

(٢) أحد أبواب القلعة (الخطط ج ٢ ص ٢٠٤) وهو خلاف
باب القرافة من أبواب القاهرة الخارجية القديمة التي كان يخرج
منه أهل القاهرة الى قرافة الامام الشافعى وكان باب القرافة بسور
القلعة القبلى بين البرجين المعروفين ببرج المطار وقد سد من الخارج
في أيام العثمانيين .

لسباق خيل الأمراء والأجناد والخدام ، فتحصل به اجتماعات
جليلة للتفرج عليهم الى أن أنشأ السلطان تربة الأمير بييغا
التركمانى . فعمر ذلك كله تريبا وخوانك حتى صارت
العمائر متصلة من باب القرافة الى بركة الحبش لا يوجد بها
قدر ذراع بغير عمارة وتنافس الأمراء فى ذلك حتى بلغوا
فى عمارته مبلغا عظيما .

وعمر فى أيامه أيضا الصحراء التى فيما بين القلعة
وخارج باب المحروق الى قبة النصر وكان هناك ميدان القبق
من عهد الظاهر بيبرس برسم ركوب السلطان وعمل الموكب
به وبرسم سباق الخيل وأول من عمر فيه الأمير قراينقر
تربة وعمل لها حوض ماء للسبيل (يعلوه مسجد) ثم اقتدى
به الأمراء والأجناس وغيرهم حتى امتلأ الميدان من كثرة
العمائر .

وعمر السلطان لماليكه عدة قصور : منها قصر الأمير
طقتمر الدمشقى بحدرة البقر (١) وبلغ مصروفه ثمانمائة
الف درهم فلما مات طقتمر أنعم به السلطان على الأمير
طشتمر حمص أخضر فزاد فيه . ومنها قصر الأمير بكتمر
الساقى (٢) على بركة الفيل فعمل أساسه أربعين ذراعا

(١) هو بلداته بيت طشتمر الساقى حمص أخضر وكان واقعا
بالمنطقة التى تحد اليوم من الغرب بشارع الحلمية وقد أزيل القصر
وملحقاته .

(٢) كان قصر بكتمر من أعظم مساكن مصر وأجلها قدرا وموضعه
على بركة الفيل تجاه الكبش (الخطط المقريرية ج ٢ ص ٣١٨) .

وارتفاعه من الأساس مثلها فزاد مصروفه على ألف ألف درهم ومنها الكباش حيث كانت عمارة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فعمله السلطان سبع قاعات برسم نزول بناته وسراريه فيها للتفرج على ركوب السلطان الى الميدان (الناصري) الكبير ولم ينحصر ما أنفق فيها لكثرتة . ومنها اسطبل الأمير قوصون بسوق الخيل تحت القلعة حيث كان اسطبل الأمير سنجر البشمقدار واسطبل سنقر الطويل ومنها قصر بهادر الجوباني (١) بجوار زاوية البرهان الصائغ بالجسر الأعظم تجاه الكباش ومنها قصر قطلوبغا الفخري (٢) وقصر الطنبغا المارديني وقصر يلغا اليحياوي (٣) وهو أجل ما عمره من القصور صرف على أساسه ثمن جير وحجر وأجرة مائة وثلاثين ألف درهم وعمل نزوله في الأرض ثلاثين ذراعا واحتيج فيه الى زنة عشرة آلاف درهم لا زورد لدهان سقوفه ثمنها مائة ألف درهم . وعمر الأمراء في أيام السلطان الناصر عدة دور : منها

(١) اندثر هذا القصر وكان واقعا في الجهة الغربية من جامع لاجين اللالا المعروف بجامع أبي سعيد جقمق بشارع عبد المجيد سليم بالسيدة زينب .

(٢) يرجع ان هذا القصر كان بحارة برجوان بالقرب من جامع زين الدين عبد الباسط بن خليل وقد اندثر .

(٣) أمر الملك الناصر محمد ببناء هذين القصرين للأميرين المذكورين لمحبه لهما وليكونا بالقرب من قلعة الجبل . شيدعما كان سوق الخيل بالرميلة تحت القلعة ، وفي ٧٥٧ هـ / هدم السلطان حسن بن محمد هذين القصرين وادخل أرضهما في مسجد الكبير .

دار الأمير ايدغمش أمير آخور (١) ودار أقبغا ودار طقزدمر ودار بشتاك على النيل وهي تشتمل على ربع كبير فوق زريبة بجوار جامع طيبرس وقصر بشتاك بالقاهرة (٢) .

وأنشأ السلطان الناصر محمد الميدان الكبير على النيل وخرب ميدان اللوق الذي أنشأه الظاهر بيبرس وعمله بستانا حملت اليه الأشجار من دمشق وغيرها فكانت فواكهه تحمل الى الشراب خاناه السلطانية . ثم أنعم به على الأمير قوصون فبنى تجاهه على الزريبة المعروفة بزريبة قوصون ، واقتدى به الأمراء فى العمارة فأخذ قوصون بستان بهادر رأس نوية ومساحته خمسة عشر فدانا وحكره للناس ، فبنوه دورا ، وعرف بحكر قوصون . وحكر السلطان حول البركة الناصرية أراضى البستان ، فعمره الناس وسكنوا فيه وحكر الأمير طقزدمر بجوار الخليج بستانا مساحته ثلاثون فدانا وبنى له قنطرة عرفت به وعمل هناك حماما وحوانيت فصار حكرا عظيما للمساكين . وحكر الأمير أقبغا عبد الواحد بستانا بجوار بركة الفيل فعمر عمارة كثيرة بعد ما كان مقطع طريق فصار قدر مدينة كبيرة

(١) موقع هذه الدار فى الجزء الشرقى من مسجد السلطان حسن وقد اندثرت .

(٢) مازال جزء من هذا القصر باقيا بالنحاسين ، بناه الأمير بشتاك فى سنة ٧٣٥ هـ وأتمه بعد ثلاث سنوات وكان ارتفاعه أربعين ذراعا والماء يجرى من أعلاه وله شبابيك تشرف على شارع القاهرة الأعظم .

وأخذ بقية الأمراء جميع ما كان من البساتين والجنينات
ظاهر القاهرة وحكروها . وحكرت الدادة حديق (المعروفة
باسم) ست مسكة القهرمانة حكرين عرفا بها ، فجاءا من
أحسن الأحكار وأنشأت بكل واحد منهما جامعا تقسام به
الجمعة . فأنافت الأحكار التي استجدت في أيامه على ستين
حكرا حتى لم يوجد موضع يحكر ، واتصلت العمارات من
خارج القاهرة الى جامع ابن طولون والمشاهد .

وفي أيام الناصر محمد عمر الأمير قوصون بالقاهرة
وكالة حيث كانت دار تعويل البوعسائي (١) وعمر الأمير
طشتمر حمص أخضر ربعا بجوار حدة البقر وهو الذى عمر
قيسارية الحريرين بجوار الوراقين من القاهرة . وعمر
الأمير بكتمر الساقى بمدينة مصر ربعين ، وحوانيت على النيل
ودار وكالة ومطابخ سكر . وعمر الأمير طقزدمر دار
التفاح خارج باب زويلة والربع الذى فوقه .

وتجددت عدة جوامع في أيامه أنافت على ثلاثين جامعا :
منها الجامع الناصرى بقلعة الجبل ، والجامع الجديد الناصرى

(١) ورد وصف لهذه الوكالة التى بناها الأمير قوصون فى
الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٩٣ جاء فيه ان هذه الوكالة فى معنى
الفنادق والخانات ينزلها التجار بيضائع الشام من الزيت السرج
والصابون والدبس والفسق والجوز - ونحو ذلك وموضعها فيما بين
الجامع الحاكمى ودار سعيد السعداء وكانت أخيرا تعرف بدار تعويل
البوعسائي فخربها وماجاورها الأمير فوضون وجعلها فندقا كبيرا الى
الغاية وبدائرة عدة مخازن .



مسجد السلطان حسن والرفاعي

ظاهر مصر على النيل ، وجامع المشهد النفيسى وجامع الأمير
 كراى المنصورى بآخر الحسينية وجامع الأمير طيبرس نقيب
 الجيش على النيل بجوار خنكاته . وهو الذى عمر أيضا
 مدرسة بجوار الجامع الأزهر بالقاهرة وجامع الأمير بدر الدين
 محمد بن التركمانى بالقرب من باب البحر ، وجامع الفخر
 ناظر الجيش على النيل فيما بين بولاق وجزيرة الفل .
 وقد عمر جامعا آخر خلف حص الكيالة ببولاق وجامعا ثالثا
 بالروضة ، وجامع كريم الدين خلف الميدان ، وجامع شرف
 الدين لجاكى بسويقة الريش وجامع الأمير حسين بالحكر (١)
 وبنى له قنطرة على الخليج، وجامع الأمير قيدان الرومى بقناطر
 الوز وجامع دولت شاه مملوك العلائى بكوم الريش (٢)
 وجامع الأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك بطرف الحسينية
 وجامع ناصر الدين الحرانى الشربينى بالقرافة وجامع الأمير
 أقسنقر شاد العمائر قريبا من الميدان وجامعا خارج باب
 القرافة عمره جماعة من العجم وجامع التوبة بباب البرقية
 عمره مغلطاي أخو الأمير الماس وجامع بنت الملك الظاهر بيبرس
 بالجزيرة المستجدة وعمر ما حوله أملاكا كثيرة ، وجامع
 الأمير الماس فى الحلمية القديمة وجامع أخى صاروجا بشون
 القصب ، وجامع الحاج آل ملك بالحسينية وجامع الأمير بشتاك

(١) حكر جوهر النوبى (النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٠٢ حاشية

(٢) ورد هذا الجامع باسم جامع كوم الريش فى خطط المقربرى

على بركة الفيل تجاه حانكاه ، وجامع ست حدق فيما بين
قنطرة السد (١) وقناطر السباع ، وجامع ست مسكة
قريبا من قنطرة آقسنتقر وجامع الامير الطنبغا المارديني
بالتبانة ، ومسجد مظفر الدين بن الفلك بسويقة الجميزة من
الحسينية وجامع جوهر السحرتي (٢) قريبا من باب الشعرية
وجامع فتح الدين محمد بن عبد الظاهر بالقرافة .

الواقع انه لثبت فخم من العماثر التي رصعت القاهرة
في أيام هذا العاهل !

(١) الست حدق والست مسكة اسمان لسماة واحدة . والست
حدق كانت تعرف أولا بهذا الاسم فقط وقد أنشأت الجامع المعروف
باسمها هذا سنة ٧٢٧ هـ « فلصق به ثم اشتهرت لسبب ما بعد هذا
باسم الست مسكة . فعرف الجامع الثاني بهذا الاسم الثاني وكان
بناؤه سنة ٧٤١ هـ (الخطط المفرزية ج ٢ ص ٣١٢ و ٣٢٦) .

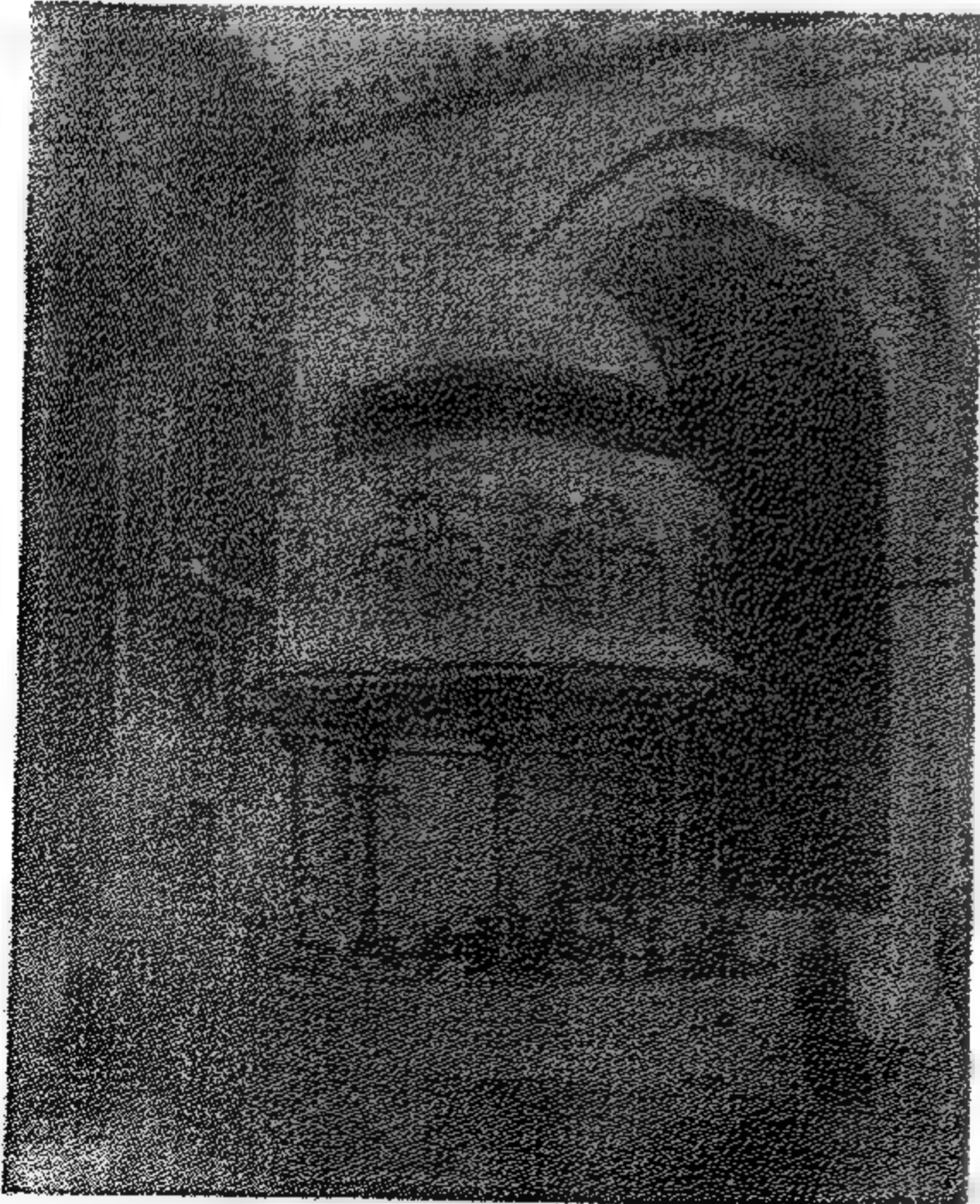
(٢) الثابت من اللوحة التذكارية بباب هذا الجامع أنه بنى
سنة ٧٤٣ هـ أي بعد وفاة الناصر بستين على أن ذلك لا يمنع من أن
بناؤه بديء في عهد هذا السلطان (النجوم الزاهرة حاشية محمد رمزي
ج ١ ص ٢٠٦) .

مدرسة السلطان حسن بن قلاوون

جوهرة المدارس

اعتلى السلطان حسن العرش للمرة الأولى في ستة
٧٤٨ هـ (١٣٤٧) ، وعزله أمراؤه في عام ٧٥٢ هـ ، لكنه
استطاع خلع أخيه واستعاد عرشه في عام ٧٥٥ هـ وبقي
حاكما حتى ٧٦٢ هـ (١٣٦١) ، ولم يكن حسن محبوبا
أو جديرا بالحكم ولكنه خلف عمارة جليلة خلدت اسمه، هي
تلك المدرسة / المسجد خير أبنية المماليك جميعا وهي مدرسة
السلطان حسن .

انه أجمل مساجد القاهرة ، شيد على نظام المدرسة .
وكان موضعه بيت الأمير يلبغا اليحياوى وابتدأ السلطان
عمارته في سنة سبع وخمسين وسبعمئة وعمله في أكبر
قالب وأحسن هندام وأضخم شكل فلا يعرف في بلاد



صحن مدرسة مسجد
السلطان حسن بالقلعة
(١٣٥٦ - ١٣٦٢)

الاسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هذا الجامع . اقيمت
العمارة فيه مدة ثلاث سنوات بدون عطلة يوم واحد وأرصد
لمصروفه كل يوم عشرون ألف درهم (ستمائة جنية) ،
ولقد قيل أنه صرف على القالب الذى بنى عليه عقد الايوان
الكبير مائة ألف درهم وذراع هذا الايوان خمس وستون
ذراعا فى مثلها ، ويقال انه أكبر من ايوان كسرى بالمداين
فى العراق بخمسة أذرع وقبته العظيمة لم يبن بديار مصر
والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها وكذلك المنبر
الرخامى الذى لا نظير له والبوابة العظيمة وقد عزم
السلطان على أن يبنى أربع منائر يؤذن عليها فتمت ثلاث
منها الى أن كان يوم السبت السادس من شهر ربيع الآخر
سنة ٧٦٢ هـ فسقطت المنارة القريبة من المدخل فهلك
تحتها نحو ثلثمائة نفس فأبطل السلطان بناء هذه المنارة
ونظيرتها ، ولما سقطت المنارة لهجت عامة مصر والقاهرة
بأن ذلك منذر بزوال الدولة فقال الشيخ بهاء الدين
أبو حامد بن على بن محمد السبكى فى سقوطها :

أبشر فسعدك يا سلطان مصر أتى

بشيره بمقال سار كالمثبل

ان المنارة لم تسقط لمنقصة

لكن لسر خفى قد تبين لى

من تحتها قرىء القرآن فاستمعت

فالوجد فى الحال أداها الى الميل

واتفق أن قتل السلطان بمكيذة دبرها بعض كبار
أمرائه بعد سقوط المنارة بثلاثة وثلاثين يوما ومات قبل
أن يتم رخام هذا الجامع فأتم قسما منه بشير الجمدار (١) .
ويبلغ ارتفاع جدران هذا المسجد ١١٣ قدما مبنية
بالحجارة المنحوتة الكبيرة المأخوذة من أنقاض الأهرام وتحلى
النوافذ العديدة واجهته الممتدة . وأجمل مظاهر الجامع
طنفه الفخم المكون من ست وصلات من المقرنصات واحدة
تعلو الأخرى ويتوجه جدرانه الشامخة بينما تزين مدخل
الجامع تلك النقوش القوية والزخارف الهندسية والأعمدة
ذوات التيجان المقرنصة .

ولا يقل داخل الجامع أبهة ورونقا عن خارجه ،
فالكتابات الكوفية والعربية المنقوشة على الجدران تزيينه
وتزيده حسنا وجمالا ، فى مقصورة القبر كتبت آية
الكرسى بالكوفية على الجدران الأربعة على ألواح الخشب
التمين ، وتعلو المقصورة القبة الجديدة وهى ليست بقبة
الجامع الأصلية ، فقد تهدمت فى عام ١٦٦٠ وكان قد
وصفها « بيتروديلافالى » الرحالة لما زار القاهرة عام
١٦١٦ م .

هذا وأكثر مشكاواته النحاسية ومصابيحه الزجاجية

(١) كشف الاستاذ حسن عبد الوهاب فى نوفمبر ١٩٤٤ عن اسم
مهندس هذا المسجد ، محمد بن بيلبك مكتوبا فى الطراز الجصى بالمدرسة
الحنفية . تاريخ المساجد الاثرية ج ١ ص ١٧٦ - ١٨١ .



مئذنه مسجد الناصر محمد بن قلاوون ومحمد علي

المطلية بالميناء لا تزال محفوظة في متحف الفن الاسلامي ،
ولما شرع السلطان الملك المؤيد شيخ في عمارة جامعہ بجوار
باب زويلة اشترى باب الجامع النحاسي ونقله الى جامعہ
عام ٨١٩هـ / ١٤١٦ .

وكان هذا الجامع مقاوما لقلعة الجبل فقلما تكون فتنة
بين زعماء الدولة حتى يصعد الى سطحه عدة أمراء وغيرهم
ويبدأ الرمي منه على القلعة فلم يحتمل ذلك الملك الظاهر
برقوق وأمر بهدم الدرج الذي كان يصعد منه الى المنارتين
ويصل الانسان من هذا الدرج الى السطح الذي كان يرمى
منه على القلعة وهدمت البسطة العظيمة والدرج الذي كان
بجانبى هذه البسطة أمام باب الجامع حتى لا يمكن الصعود
اليه وسد من وراء الباب النحاسي وفتح شباك من شبابيك
أحد مدارس هذا الجامع الأربعة وامتنع صعود المؤذنين الى
المنارتين وبقي الأذان على درج هذا الباب ومع ذلك فقد
استمر الجامع مركزا للمناوشات وتبادل الطلقات لفترة
طويلة ولا تزال آثار بعض « الجبل » باقية عليه للآن وقد
ذكر « ستانلي لين بول » أن احدى مآذنتى الجامع كانت
تتصل بسور القلعة بحبل كان يلعب « بهلوان أوروبى »
تسلية للجماهير التى كانت تفد لمشاهدة مخاطراته . ومع
كل ما مر بهذا الجامع الحالد من الحوادث والذكريات والسنين
والأيام لم يزد الا عظمة ووقارا بالرغم مما ظهر على وجهه
من ملامح الشيخوخة . وهو لا يزال أئمن وأفخر أثر
اسلامى خلفه لنا أبناء القرن الرابع عشر .

بناءو الممالك الجراكسة

(١٣٨٢ - ١٥١٧)

بالرغم من أصل هؤلاء الممالك وأنهم كانوا رقيقا
اشتراهم السادة من أسواق الرقيق ، فقد أظهروا فى
معيشتهم صفات كثيرة نبيلة منها حبهم لبناء العمائر
الجميلة فدلوا على ذوق سليم ورفاهية بالغة . فكان برقوق
والمؤيد وجقمق وقابتباى والغورى مولعين بمجالس العلم
والأدباء فضلا عن شغفهم بالعمارة ، شيدوا المساجد



قبة سودون أمير مجلس
بقرافة الممالك القبلية

والمدارس والمستشفيات وغيرها من القباب والأضرحة الجميلة التي ما زالت تزدهر بها القاهرة .

وسنعرض الآن ما بناه كل من هؤلاء البنائين المماليك من سلاطين وأمراء وسراة : يقابلنا الملك الظاهر أبو سعيد برقوق أول ملوك الجراكسة . كان مملوكا للأتابك يلبغا فأعتقه وعينه في كثير من المناصب ، ومنذ ذلك الحين ابتسم له الحظ حتى ولي ملك مصر سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢) وظل ملكا حتى توفاه الله سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٩) . وأهم ما بناه المسجد الذي يعرف باسمه وهو ملاصق لمدرسة الناصر محمد بن قلاوون من الجهة الشمالية . وقد تألفت من واجهتيهما ومن واجهة تربية ومدرسة السلطان قلاوون مجموعة نبيلة من أجمل المباني الاثرية في القاهرة ! ففي الطرف البحري منها مئذنة ضخمة متناسبة الابعاد لبست دورتها الوسطى بقطع من الرخام . والمسجد مشيد على أسلوب المدرسة المتعامد وتطل ايواناته الاربعية على صحن مكشوف وأكبرها ايوان المحراب . وتعلو التربة قبة ذات أركان مقرنصة غاية في الاتقان . والمعروف أن برقوق لم يدفن في هذه التربة بل دفن في إحدى ترب خانقاه ابنه فرج بن برقوق .

خانقاه الناصر فرج بن برقوق (١٤٠٠ - ١١)

بدأ في بنائها الملك الناصر فرج ابن برقوق ، (ولد

سنة ١٣٨٩ م واستقر في الملك بعهد من أبيه في يونيو
سنة ١٣٥٨ وحكم حتى قتل في سنة ١٤١٢)، سنة ٨٠١ هـ
(٩٩/١٣٩٨) وانتهى منها سنة ٨١٣ هـ (١١/١٤١٠)
وهي بناء ضخمة لا يقتصر على تربية ، بل وضع تصميمها
ونفذ على أن يخدم أغراضا هامة متعددة ، فهي مدرسة
تدرس فيها العلوم الشرعية ومسجد جامع فسيح الأرجاء
وتربية لآل برقوقي ، وخانقاه فخمة . استغرق بناؤها حوالي
الاثنى عشرة سنة . وبلغ من اهتمام الناصر فرج بها
أنه جعل ما حولها مدينة أخرى عامرة بأسواقها وخاناتها
وحماماتها ولكنه مات قبل أن يدرك كل غايته (١) .

ففي طرفي هذه المجموعة البحرية والقبلي سبيلان
يعلوهما مكتبان أنيقان لتحفيظ الأبناء اليتامى القرآن .
ومما يزيد الواجهة الغربية جمالا مئذنتان تقوم احدهما على
يمين المكتب البحري والأخرى على يسار المكتب القبلي .
أما الواجهة الشرقية فتتكون من قبتين شامختين متماثلتين
رسما وحجما تكتنفان طرفي هذه الواجهة وتتوسطهما قبة
ثالثة أصغر منهما حجما تعلو المحراب . وقد حليت أسطح
القباب بنقوش بارزة متعرجة على شكل دالات نقشت
في الحجر .

وقد دفن بالقبة البحرية الملك الظاهر برقوقي

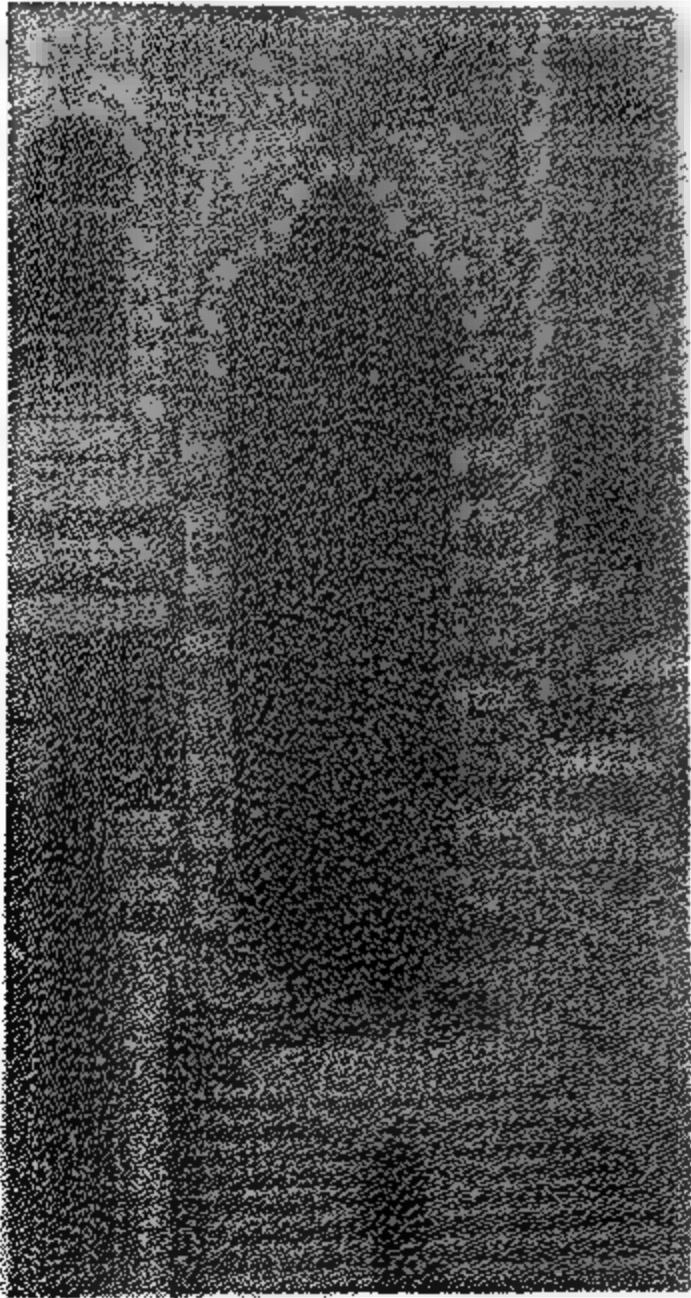
(١) محمود أحمد : دليل موجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة ،

(ت ٨٠١ هـ) وأولاده ومنهم المنصور عبد العزيز
(ت ٨٠٩ هـ) . وفى القبة القبلىة ابنة الناصر فرج
(ت ٨٨٧ هـ) وخوند حريز (ت ٨١١ هـ) .

وللسلطان فرج بن برقوق زاوية تقع على رأس تقاطع
شارع تحت الربع بقصبة رضوان ، بناها جمال الدين
يوسف الاستادار بأمر السلطان سنة ٨١١ هـ (١٤٠٨)
وقد لحق بهذه الزاوية سبيل جميل .

السلطان البناء المؤيد شيخ

وهذا واحد آخر من بناء القاهرة : الملك المؤيد
أبو النصر شيخ الممودى الجركسى الأصل . قدم الى



باب المسجد لضريح السلطان فايتباى

القاهرة فى أول سنة ٧٨٣ هـ فاشتهر به محمود اليزدى
تاجر الممالك ولذلك عرف بالمحمودى وقدمه الى الظاهر
برقوق وقت أن كان أتابكا فأعتقه وعلمه الفروسية وعينه
فى جملة وظائف ٠٠ وفى عام ٨١٥ هـ (١٤١٢) ولى ملك
مصر وبقي به الى أن توفاه الله فى يناير سنة ١٤٢١ .

يقوم مسجده الجليل بجوار باب زويلة وفى شارع
السكرية واستغرق بناؤه خمس سنوات ، من عام ١٤١٥
الى ١٤٢٠ ، وكان له مكتبة قيمة ومدرسون لتدريس
العلوم الدينية . يمتاز بمئذنتيه المنفصلتين عنه ، فهما
تقومان على بدنتى باب زويلة ، وتقوم واجهة الجامع القبلى
على أساس السور القبلى . وواجهته الشرقية هى الواجهة
الرئيسية ، وفى نهايتها البحرية سلم يودى الى مدخل
جميل محلى بالرخام ، والكتابات الكوفية ، ومغطى
بالمقرنصات . وينتهى المدخل بباب يودى الى « دركاة »
سقفها مقبب ، وفى جدارى الدركة البحرى والقبلى ، بإبان
متقابلان ، أحدهما يودى الى حجرة بها المقبرة التى دفن
بها السلطان وبعض أفراد أسرته ، ويعلو المقبرة قبلة
سطحها الخارجى محلى بزخارف على شكل دالات . وبالجانب
القبلى للمقبرة باب يوصل الى الايوان الشرقى للجامع .
وجزء من جدران هذا الايوان مكسبى بوزرة جميلة من
الرخام ثعلوها كتابات وتقوش مذهبة تصل الى السقف ،
وبه محراب يجاوره منبر لطيف الصنعة . وسقف هذا

الايوان محمول على عقود تتكىء على أعمده من الرخام .
وسبب بناء هذا الجامع فى مكانه المعروف ، يرجع الى
أن شيخ الحمودى كان قد حبس أثناء تمرده ضد
السلطان فرج فى سجن يكون جزءا من السور الفاطمى ،
وقاسى العذاب فيه ، فلما أصبح سلطانا أمر بهدم السجن
وشيد محله مسجده الكبير الذى يزين الحى بأكمله !
وللملك المؤيد بيمارستان شيده فيما بين (١٤١٨ -
١٤٢٠) بدرب اللبان ، فى المكان الذى عرف قديما بالصوة
تجاه طبوخانة قلعة الجبل حيث كانت مدرسة الأشرف
شعبان بن حسين التى هدمها الناصر فرج بن برقوق .
ويقوم باب البيمارستان الآن حيث كان باب المدرسة .
أنشأه الملك المؤيد شيخ وعملت مصاريفه من أوقاف جامع
المؤيد الذى كان شيده . ولما توفى المؤيد (٨٢٤ هـ) تعطل
البيمارستان قليلا ثم سكنه طائفة من العجم وصار منزلا
لرسل الوافدين من خارج البلاد الى السلطان ثم عمل فيه
منبر ورتب له خطيب وامام ومؤذنون وبواب وقومة وأقيمت
به الجمعة فى عام ٨٣٥ هـ (١٤٢٣) فاستمر منذ ذلك
الحين مسجدا . وبنى السلطان حماما بالقرب من المسجد
عرف بحمام السلطان المؤيد (١٤٢٠) .

البناء السلطان برسباى

هو السلطان الملك الأشرف برسباى أحد مماليك

الظاهر برقوق ، ولى مصر سنة ١٤٢١ وتوفى فى سنة ١٤٣٧ ودفن بتربته بالقرافة الشرقية .

أما مسجده ففى الأشرافية بالقرب من الصاغة وتتكون واجهته الشرفية الكبيرة من سبيل وكتاب وباب نجاوره مئذنة ، والباب الرئيسى مغشى بالنيحاس المخرم المزخرف وتصميم المسجد على منال المدارس المتعامد ، وتطل أوأوينه الأربعة على صحن مكشوف .

أما مدفن الأشرف برسباى ففى القرافة الشرفية جنوبى خانقاه وتربة السلطان برقوق ويتوصل اليه من سلم يؤدى الى مدخل تعلوه مئذنة جددت حديثا . ويلاحظ ان أعمال الرخام فى المدفن تفوق نظيرها حتى فى ضريح السلطان قايتباى ، وأمام المحراب تركيبة من الرخام فوق التربة التى دفن فيها الأشرف برسباى مع زوجته . ولبرسباى مسجد كبير بالخانكاه .

مسجد ومدرسة جوهر اللالا :

يقوم هذا المسجد على ربوة عالية شمالى مسجد الرفاعى ، وهو مع المبانى الأثرية المجاورة المتناسقة تزين حقا ميدان صلاح الدين . أنشأه الأمير جوهر اللالا من أمراء الأشرف برسباى قبل توليه حكم مصر . يقوم على قطعة أرض غير منتظمة الشكل ، وقد عرف مهندس الجامع كيف يفيد من تلك المساحة ، فأنشأ عليها مسجدا ومدرسة

وسبيلا وميضأة ومقبرة . يدخل الزائر اليه من الباب الى دركاة مربعة بصدرها صفة مفروشة بالرخام ، سقفا مموء بالذهب والألوان . وعلى يمين هذه الدركاة باب السبيل والمدرسة ، والى اليسار باب آخر يؤدى الى ممر مستطيل ينتهى بباب يوصل الى داخل المسجد ، وهو مشيد على طراز المدارس ، به أربعة ايوانات ، اثنان منها كبيران ، والآخران صغيران . . وفى الناحية القبلىة الشرقىة قبة صغيرة بها قبر المنشئ .

مساجد

القاضى زين الدين يحيى

ولد الأمير زين الدين يحيى بمصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، فنشأ بها وتدرّب فى وظائف الدولة وتدرج فيها الى أن عين ناظرا لديوان المفرد (الخاصة) غير مرة ، ثم عين ناظرا للاسطبل السلطانى ، ومحتسبا للقاهرة (محافظا) . وفى دولة السلطان الظاهر جقمق تنكرت له الدنيا ، فنكب وعذب واستخلصت منه أموال كثيرة وقاسى أهوالا شديدة ، ثم أرسل الى المدينة الشريفة فبقى بها أشهرًا عاد بعدها الى مصر ولزم بيته . ولما ولى الملك الأشرف قايتباى ملك مصر صادر أمواله أيضا ، وحبسه بالقلعة الى أن توفى ليلة الخميس ٢٨ ربيع الأول سنة ٨٧٤ هـ (١٤٦٩) وقد تجاوز الثمانين من عمره ودفن بمسجده الذى سنتكلم عنه ، وهذا المسجد يقع فى شارع

الأزهر عند تلاقيه بشارع الخليج المصرى وقد تجلّت في واجهته الجنوبية دقة الصناعة .

أنشئ المسجد سنة ٨٤٨ هـ (١٤٤٤) وهو من المساجد التي تحفل بتسليّ الصناعات الجميلة وله ثلاث واجهات : شرقية وبطرفها القبلى مدفن للمنشئ وبطرفها البحرى المئذنة الرشيفة ذات الدورات الثلاث : وواجهة بحرية تتكون من باب للميضأة المنخفضة عن مستوى الشارع ويجاوره الباب الرئيسى للمسجد ، وواجهة قبلية كشفت في أعقاب فتح شارع الأزهر وكانت مهدمة ، فعنيت بها إدارة حفظ الآثار العربية واعادتها الى ما كانت عليه ، وفي هذه الواجهة باب حافل بالنقوش والكتابات والمقرنصات (١) . ويقع المسجد الثانى للقاضى زين الدين يحيى بشارع الخضرا ببولاق وعرف بجامع المحكمة ، لاتخاذة محكمة منذ القرن العاشر الهجرى حتى القرن الثالث عشر . وقد بناه في عامى ١٤٤٨ و ١٤٤٩ وافتتح للصلاة في سنة ٨٥٢ هـ (١٤٤٨) قبل الفراغ من بنائه . ولهذا المسجد ثلاث واجهات رئيسية مبنية بالحجر ، يتوسط كلا منها باب : القبلى والبحرى منهما متماثلان ، واختلف الغربى عنهما ، وقد اشتملت تلك الأبواب على مقرنصات متنوعة ، وزخارف هندسية وتطعيم بالرخام الملون ، وكتابات تاريخية .

(١) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الاثرية ، ج ١ ص

أما المسجد الثالث لهذا القاضي فيقع بالحسانية ، وقد فرغ من بنائه في شهر جمادى الآخرة سنة ٨٥٦ هـ (١٤٥٢) . ولهذا المسجد واجهة بحرية تشتمل على الباب ويقوم على يمينها منارة حجرية يجاورها كتاب ، وقد عنيت لجنة حفظ الآثار العربية بهذا المسجد فأصلحته إصلاحا شاملا في عام ١٩٠٧ فأعادت إليه بهاء السابق .

السلطان البناء قايتباي

(١٤٦٨ - ١٤٩٥)

كانت السنوات الست الأولى من حكم السلطان قايتباي ينودها الأمن والهدوء ، فاستطاع قايتباي أن يشبع ميله إلى البناء ، ويرجع إلى هذا العهد مسجد ، وضريحه وسبيله في القرافة الشرقية (١٤٧٢ - ١٤٧٤) . تم هناك حوضه ، ومقعده ، وربعه ، وسبيل آخر ، وحوض آخر (١٤٧٤ - ٧٥) ثم مدرسته الفخمة بقلعة الكباش (١٤٧٥) ، ومسجد آخر ، وخانات ، وقصور أخرى نجا بعضها من التدمير . أصف إلى هذا ما أمر بتجديده وإضافته في مباني الأزهر ، وقلعة الجبل . وقد رغب الأمراء الكبار في بلاط قايتباي أن يقلدوا مولاهم فخلقوا لنا مجموعة من العمائر الجميلة التي رصعوا بها القاهرة ونذكر منها مساجد الأمير قجماس الاسحقى ، وأبى بكر مزهر ، وأزبك اليوسفى وأزبك بن ططخ الذى هدمت أزبكيته لتفسيح مكانا لدار الأوبرا في سنة ١٨٦٩ .

ان طائفة مباني السلطان قايتباي في القرافة الشرقية
تشتمل على أجمل الخصائص والميزات المعمارية التي تتسم
بها عمارة دولة المماليك ، وما بلغت من السمو والرقى . .
وليس هذا الأثر مسجدا فحسب ، بل انه مجموعة مؤلفة
من مدرسة وضريح وسبيل ، شيدت كلها في انسجام
وتناسق وجمال في داخلها وخارجها . أما المئذنة فتعتبر
من أجمل مثيلاتها في القاهرة - في رشاقتها الجذابة وهي
من ثلاث دورات ، حلى بدن دورتها الأولى بنقوش وكتابات ،
وحلى بدن الدورة الثانية بنقوش مورقة ، وتقوم الدورة
الثالثة على عمد رقيقة .

وواجهة المسجد الرئيسية هي الواجهة البحرية وبها
الباب الذي حلى بالرخام الملون والكتابات ، وكتب على
جانبيه اسم قايتباي وتاريخ عام ٨٧٧ هـ . . وتعلوه
دائرتان رخاميتان كتب فيهما : « عز لمولانا السلطان الملك
الأشرف قايتباي » عز نصره . وعلى يسار الباب سبيل
تعلوه المدرسة . ولهذا المسجد الأنيق أربعة ايوانات
معقودة تطل على الصحن ، ويغطيه سقف يتوسطه منور
نقش بزخارف ملونة ومذهبة .

وشيد قايتباي مدرسة بالكش (٨٨٠ - ١٤٧٥) ،
ولها بابان كبيران ، نقش على أحدهما : أمر بإنشاء هذه
المدرسة المباركة سيدنا ومولانا الأشرف السلطان الملك
أبو النصر قايتباي ، ونقش على الباب الثانى كتابة مثلها .

وهناك كتابة نقشت على الطنف الداخلى نصها : « أمر
بانشاء هذه المدرسة المباركة سيدنا ومولانا السلطان الملك
الأشرف قايتباى أعز الله أنصاره ، وكان الفراغ من ذلك
فى مستهل شهر شعبان المبارك سنة ٨٨٦ من الهجرة
النبوية » .

وهناك فى شارع شيخون بالصليبة شيد السلطان
قايتباى سبيلا جميلا تعلوه كتابات نصها : « أمر بانشاء
هذا السبيل المبارك السعيد من فضل الله تعالى وجزيل عطاء
العظيم مولانا المقام الشريف السلطان المالك الملك الأشرف
أبو النصر قايتباى بتاريخ شهر ذى الحجة سنة أربع
وثمان مائة » . يعلو السبيل كتاب لتعليم الاطفال
وتحفيظهم القرآن ، ويعتبر هذا السلطان أول من أفرد
السبيل والكتاب عن المدرسة أو المسجد ، ولهذا السبيل
واجهتان شامختان كسيتا بالرخام الملون ويعتبر من أجمل
أسبلة مصر .

أمراء السلطان قايتباى البناءون

يقابلنا فى طليعة هؤلاء : الأمير يشبك الدوادار ، وقد
شغل أسمى مناصب دولة قايتباى وقد شغف مثل سيده
بالعمارة ، وله مآثر فى اصلاح الآثار وتنظيم الطرق
وتوسيعها وبناء القصور والقباب ، كما كان منقبا فى
المسائل العلمية ، وتوفاه الله سنة ٨٨٥ هـ (١٤٨٠) .
من مبانيه القبة الجميلة بكوبرى القبة ، أنشأها سنة

٨٨١ هـ / ٨٢ (١٤٧٦ - ٧٧ م) كما أنشأ بجوارها مدرسة وبستانا كبيرا جعلها من أبهج متنزهات القاهرة وقد حضر الملك الأشرف قايتباى حفلة افتتاح تلك المنشآت (يوليو ١٤٧٨) ، فأعجب بها وأثنى على منشئها .

ولم يبق الآن من تلك المباني سوى قبة كسيت جدرانها بوزرة من الرخام الجميل المتنوع الألوان وتنتهى بإفريز كتب عليه بالخط الكوفى المزهى والمربع آيات من القرآن وتاريخ الفراغ من بنائها .

وللأمير يشبك قبة أخرى بشوارع العباسية تعرف بالقبة الفداوية نسبة الى طائفة من بلاد الاسماعيلية يستهترون بالموت . وقد أنشأ الأمير بجوارها مدرسة وغرس حولها الحدائق ، فجعل هذه المنطقة احدى متنزهات القاهرة بعد أن كانت فضاء موحشا . ومات الأمير يشبك بن مهدى قبل أن يتمها فأكملها السلطان قايتباى وكتب ألقابه فى طراز بدائر مربع القبة من الداخل كذلك كتب اسمه أيضا على الباب القبلى لهذه القبة الضخمة التى تسودها البساطة من الخارج . وتنسب هذه القبة الى ما بين عامى ١٤٧٩ و ١٤٨١ .

الأمير البناء قجماس الاسحقى

هو الأمير سيف الدين قجماس الاسحقى الظاهرى ، كان مملوكا للظاهر جقمق ونشأ فى خدمته وعين فى جملة

وظائف آخرها وظيفة نائب الشام فى دولة الأشرف
قايتباى وبقي بها الى أن نوى سنة ٨٩٢ هـ (١٤٨٧)
ودفن بالشام .

ومن مآثره مسجده بالدرب الأحمر الذى يعتبر من
أهم مساجد دولة المماليك الجراكسة . شيد على طراز
المدارس المتعامد ، وبه ايوانان كبيران شرقى وغربى ،
وايوانان صغيران شمالى وجنوبى ، يتوسطهما صحن
مغطى بمنور .

ان داخل هذا المسجد نروة فنية وصناعية ، قل أن
يكون مثلها ها هى « صنج » العقود وأعتاب الأبواب
والجدران تزخر بالحليات والزخارف . . . كسى جدار المحراب
بوزرة من الرخام الى ارتفاع كبير يتوسطه المحراب وفى
منتصفه ووسط الوزرة اسم صانعه بشكل زخرفى ونصه :
« عمل عبد القادر النقاش » ، ويجاور المحراب المنير المطعم
بالعاج والابنوس . . وقبة المسجد شاهقة البناء بها قبر
الشيخ أحمد أبو خريبة المتوفى سنة ١٢٦٨ هـ / ١٨٥٨ ،
وبهذا الاسم عرف المسجد عند الشعب .

أبو بكر محمد بن مزهر

علامة من علماء عصر قايتباى ، ولد سنة ٨٣١ هـ
(١٤٢٦ - ٢٧) بالقاهرة وتلقى العلم عن علماء القاهرة
حتى حصل على أجازة التدريس والافتاء ، وولى الوظائف

الجليلة ، منها ناظر الاسطبل ثم أضيفت اليها وكالة بيت المال ثم ناظر الجيش ، ثم ولى كتابة السر (١٤٦١ / ٦٢) وبقي بهذا المنصب حتى سنة ٨٨/١٤٨٧ وهو ناظر ديوان الانشاء للسلطان قايتباى .

بنى مسجدا رائع العمارة بحارة برجوان ، تلك الحارة التى كان يقيم فيها مؤرخنا الجليل تقي الدين المقرئى . وقد تم بناء المسجد فيما بين ١٤٧٩ و ١٤٨٠ .

للمسجد واجهتان خاليتان من الزخارف (الشرقية والبحرية) ، أما بابه البحرى فعتبه منقوش نقشا جميلا ، ويعلو الباب الذى بالواجهة الشرقية مئذنة رشيقة من ثلاث دورات بها كثير من الزخارف التى جعلتها من أرشق مآذن مصر (١) . ومع أن الأرض التى أنشئ عليها هذا المسجد صغيرة المساحة وغير منتظمة الشكل الا أن براعة المهندس تغلبت على هذه الصعوبة وجاء تخطيطه بديعا للغاية . فالتخطيط الداخلى يخالف مساجد عصره ، فواجهة كل من الايوانين الشرقى والغربى محمولة على عمودين يحملان ثلاثة أقواس . أما الايوان البحرى والقبلى فصغيران ، ولعل مهندسه اقتبس هذه الفكرة من مسجد أصلم البهائى .

ويحفل المسجد من الداخل بشتى الفنون والصناعات الاسلامية : أعمال الرخام التى كسيت بها جدران وزرة

(١) محمود أحمد : دليل موجز لاشهر آثار القاهرة ، ص

الايوان الشرقي ، المحراب من الرخام الدقيق ، الزجاج الملون وقد كتب الصانع اسمه بشكل زخرفي في الشباك الشرقي البحري وعلى يسار المحراب ونصه « عمل عبد القادر النقاش » ، ودكة المبلغ بألوانها ، والأسقف المموهة بالألوان والذهب ، وأعمال النجارة على قدر عظيم من الجمال والدقة ، تبدو في الأبواب والخزانات والمنبر ، كذلك حشوات السن والأبنوس ، ورنك منشيء المسجد يمثل « محبرة » اشارة الى وظيفته وهي ناظر ديوان الانشاء .

ان كل ما في هذا المسجد أنيق وجميل وجميل ، يدل على ما وصل اليه صناع مصر وفنانوها من المحقق والمهارة وحسن الذوق .

الأمير أذربك الخازندار اليوسفي

من أمراء عصر قايتباي وكان أولا من مماليك الظاهر جقمق ثم اعتق ، وعرف بأذربك الخازندار لأنه تولى منصب الخازندارية في أول حياته الرسمية . صار أميرا مقدما واختير لامارة ركب المحمل عام ٨٨٧ هـ (١٤٨٢) ، ثم عينه قايتباي رأس نوبة كبير عوضا عن تغرى بردى المتوفى ، ثم رأس حملة لتأديب الثائرين في بلاد البحيرة (٨٩٨ هـ) فأدى مهمته وعاد . وفي عام ٩٠١ هـ رقى الأمير أذربك الى أمير سلاح فأمر ألف ، ولكن ساءت علاقته بالسلطان قايتباي فنفاه . ولما اعتلى قانصوه الغوري

العرش صفا له الجو ، تم توفى فى ٩٠٤ هـ (١٤٩٨)
وكان أذربك قد بنى له مدرسة ومدفنا فدفن فيها .

شيد مدرسته بالقرب من بركة الفيل فى شارع سسمى
باسمه . فى عام ٩٠٠ هـ (١٤٩٤ / ٩٥) وقد نقش على
مدخلها هذا التاريخ ولها طريقة مفروشة بالرخام ، وبداثرة
صحنه من أعلى نقش فى الحجر آيات قرآنية وكتب بجدار
الصحن القبلى : « أمر بإنشاء هذه المدرسة المقر الأشرف
الكريم العالى . . . السيسى أذربك أمير سر نواب النوبة
الملكى الأشرفى » .

الأمير أذربك بن ططخ الأتابكى

من أجلاء أمراء السلطان قايتباى وتقلد أتابكية الجيش
(قيادته) بمصر حوالى ثلاثين سنة قام بواجباتها خير قيام
وانتصر فى عدة معارك كما أحمد عدة فتن وثورات ، وكان
فى جلال تلك المدة ينوب عن السلطان فى مهام كثيرة
فصحبه فى رحلة طويلة الى سورية للتفتيش عن الحصون
والحاميات وكان ذلك فى عام ٨٨٠ هـ (١٤٧٥) . وتوفى
فى عصر السلطان قانصوه فى ٢٠ رمضان سنة ٩٠٤ هـ
(١٤٩٨) بعد أن بنى مسجدا عظيما بالقرب من بركة
الأذربكية . والجدير بالذكر أن هذا الأمير هو الذى نهض
بحى الأذربكية بعد أن ردم بركة بطن البقرة وجعل منه
متنزها شائقا ، يحدثنا عنه ابن اياس ، قال :

« كانت أرض الأذبكية خربة ممتلئة بكثب من الرماد
ينبت بها بعض أشجار السنط والاثل وبها أضرحة بعض
الأولياء . وتناولها بعض المصلحين بضروب من الإصلاح .
فأجرى إليها الماء بوساطة خلجان تخرج من النيل ، وأنشأ
بها المناظر والبساتين وماشابه ذلك ثم عفى الزمان أثرها
وعادت إلى خرابها وتناقص عمرانها ، وما زال هذا أمرها
حتى سكن الأتابكي « أذبك » على مقربة منها ، ولم تكن
أرضها ملكا له وإنما كانت من أملاك الدولة وما يخرج منها
من ثمار يعود على الناس ، ولكن الأتابكي أذبك رأى أن
يجرى إليها أسباب الحياة ويمد لها ضروب العمران فأنفق
عليها نحو من مائتي ألف دينار ، فمهد أرضها وأنشأ
مناخا لجمالها ثم حفر بركة وجعل شواطئها وأجرى إليها
الماء بوساطة الخلجان وبني فوقها القناطر ونشر حولها
المقاعد واحاطها بالبساتين وشاد العماثر والربوع والحمامات
والقاعات والطواحين والأفران ، وضروبا كثيرة من مرافق
الحياة حتى غدت الأذبكية أحد منازل القاهرة ، وتكسر
سدود خلجانها كل عام في حفل ، يحضره الأمراء والأعيان ،
ويجتمع فيه الناس للمشاهدة واللهو والسمر ، ومما أنشأه
فيها مسجد كبير . وقد وهب السلطان أرض هذه الأذبكية
للأتابكي أذبك بعد تمام هذه الجهود في انشائها (ابن
اياس : ج ٢) .

ومن بنائى القاهرة فى أخريات القرن الخامس عشر :
الأمير مامى صاحب المقعد الجميل (لوجيا) فى بيت

القاضي (١٤٩٦) ، ويعقأوب شاه المهندار وقبته معروفة
فى سفح المقطم (١٤٩٥ / ٩٦) ، وقانصوه أبو سعيد ،
والأمير خاير بك ومسجده بالتبانة (١٥٠٢) ، والأمير
قانى باى أمير أخور ومدرسته تطل على ميدان صلاح الدين
(١٥٠٣ / ٤) وهى تنسجم وتلائم مع ما جاورها من
العمائر الجميلة ، وقبتها من أجمل القباب الجركسية
حليت نواصيها بعمد حجرية منقوشة كما نقش سطحها
بزخارف مورقة جميلة وبرقتها كتابات رائعة فى الحسن ،
ومئذنتها ذات رأسين ، ربما تكون الأولى من مثيلاتها فى
القاهرة .

السلطان البناء قانصوه الغورى

هو آخر سلاطين المماليك البنائين .

حكم هذا السلطان المسن فيما بين عامى ١٥٠١
و ١٥١٦ حينما سقط شهيدا فى معركة مرج دابق وهو
يقاقل جيش العثمانيين . كان حاكما قوى الارادة وقضى
على العسف الذى عم القاهرة ، ثم زاد الضرائب دفعة
واحدة لينفق ما يجمعه على الجيش والاصلاحات والمباني
العامة التى عمر بها القاهرة .

يقابلنا فى طليعة ما بناه الغورى المدفن الذى لم يدفن
فيه والخانقاه والمكتب والمقعد ، وتقع هذه المجموعة على
رأس تقاطع شارع الغورية بشوارع الازهر ، ولها واجهتان

رائعتان احدهما غربية مشرفة على شارع الغورية والثانية بحرية مطلة على شارع الازهر ، وقد شيد السلطان هذه المجموعة فيما بين عامي ١٥٠٣ و ١٥٠٤ .

ويقابل هذه المجموعة : مسجد الغورى الذى شيده فى عام ١٥٠٤ على الطراز المتعاند ، ويتوصل اليه من سلم يؤدى الى مدخل يشبه مدخل المجموعة الأولى . ويؤدى الى دركاة جميلة مفتوح فى جانبيها القبلى باب يوصل الى طريقة تؤدى الى صحن المسجد الذى يشتمل على أربعة أيوانات أكبرها الايوان الشرقى ، وهذه الايوانات مغطاة بسقف جميل ذى نقوش موهبة بالذهب ، وللصحن منور مستطيل وأرضية الصحن والايوانات مفروشة بالرخام المختلف الألوان البديع الصنع ، وبالطرف القبلى للواجهة تنهض المئذنة المربعة المنتهية بدورة مكونة من أربعة رؤوس وكانت مكسوة بالقاشانى الأزرق . وشيد الغورى وكالة عظيمة ما زالت قائمة الى اليوم وتعرف باسمه ، كما أنه جدد قناطر المياه (١٥٠٦/١٥٠٨) المؤدية من فم الخليج الى قلعة الجبل .

والى السلطان الغورى تنسب بضعة أرباع فى خان الحليل ، كما أنه بنى عند باب القنطرة ربعين ودكاكين ، وأمر بإنشاء ميدان فسيح تحت القلعة وجلب اليه الأشجار من الشام وأجرى اليه الماء من السواقى ، وأنشأ به المناظر والمقاعد وأقام مسجدا خلف الميدان المذكور ، وجدد

كثيرا من مباني القلعة كالدهيشة وقاعات البيسرية والأعمدة
وبنى المقعد الذى بالحوش . كما بنى سوقا للرقيق بالقرب
من خان الخليلي . وجدد السلطان الغورى عمارة مقياس
الروضة وبنى به قصرا ومفعدا مطلا على النيل ، وجدد
عمارة قناطر السباع بالسيدة زينب .

وهكذا ينهض اسم قانصوه الغورى بين بناء القاهرة
بكل حق . وبذلك الاعمال الجليلة نختتم مباني المماليك
الجراكسة ، الا اذا أضفنا اليها قبة قرقماس (١٥١١) وقبة
بيبرس الحياط (١٥١٥) ومنارة مسجد أزدمر .

عبد الرحمن كتخدا أمير البنائين

فى العصر العثماني

وهذا بناء عظيم على الهمة فى أيام العثمانيين ،
يعتبر فى مقدمة الساعين فى تجميل القاهرة وترصيعها
بمبانيه . كان صاحب نفوذ قبل أيام على يك الكبير ، وقد
ورث عبد الرحمن ميوله الفنية عن أبيه الذى استطاع أن
يشيد مما جمعه من ثروة - مدرسة ومسجدا وسبيلا
بالقرب من بركة الأزيكية ، وفى يوم افتتاحها ملا حوضا
كبيرا وكل ما وصلت اليه يده من الألوان بالشراب المحلى
بالسكر ليسقى الأهالي . وبنى منشآت خيرية أخرى .

كان الأمير عبد الرحمن كتخدا مصر (محافظا لها)
فى عام ١٧٤٤ . وقد لعشق البناء ، فأنشأ وجدد كثيرا من

المساجد والأسبلة والاضرحة . وقد اشتهر عبد الرحمن بما أدخله من زيادات فى الجانب الشرقى من الأزهر ، ومن بينها ضريحه الخاص وجزء من المدخل وخمسون عمودا من رواق القبلة ومنبر ومحراب جديدان وشييد مئذنتين وبابى الشوربة والصعايدة .

جمع عبد الرحمن كتحدا فى أكثر مبانيه بين الجمال والفن ، ويتجلى ذلك فى سبيله الرائع الواقع عند ملتقى شارعى النحاسين والجمالية والمعروف باسمه حتى اليوم . ولهذا السبيل ثلاث واجهات بها ثلاث فتحات عقودها من الرخام الملون و « تواشيحها » من الرخام الدقيق موضوع عليها شبابيك نحاسية ، ويعلو السبيل كتاب ذو مظلات وحواجز من خشب الخرط . ويتضمن السبيل كتابات تحتوى على اسم المنشئ وتاريخ الانشاء (١١٥٧ هـ / ١٧٤٤) أما حجرة السبيل فقد غشيت جدرانها بالقاشانى ، وعلى جزء من جداره الشرقى رسم صورة الكعبة الشريفة . وأنشأ الأمير عبد الرحمن عند باب الفتوح مسجدا وصهريجا وكتابا ، وفى مدخل الأزهر أعاد بناء المدرسة الطبرسية وجعلها مع مدرسة الأقبغاوية المقابلة لها من داخل الباب الكبير من أحسن المباني فخامة وبهاء ، كما أنه بنى المشهد الحسينى ، وأنشأ عند باب البرقية المعروف بالغريب مسجدا وصهريجا وحوضا وسقاية ومكتبا ، وشييد مسجدا بجهة الأربكية ومكتبا وحوضا . وبنى مشهد السيدة

زينب ، ومشهد السيدة سكيئة والمشهد المعروف بالسيدة عائشة بالقرب من باب القرافة ، والسيدة فاطمة والسيدة رقية ، وعمر المدرسة السيوفية كما جدد المارستان المنصوري وغير ذلك من المساجد والأسبلة .

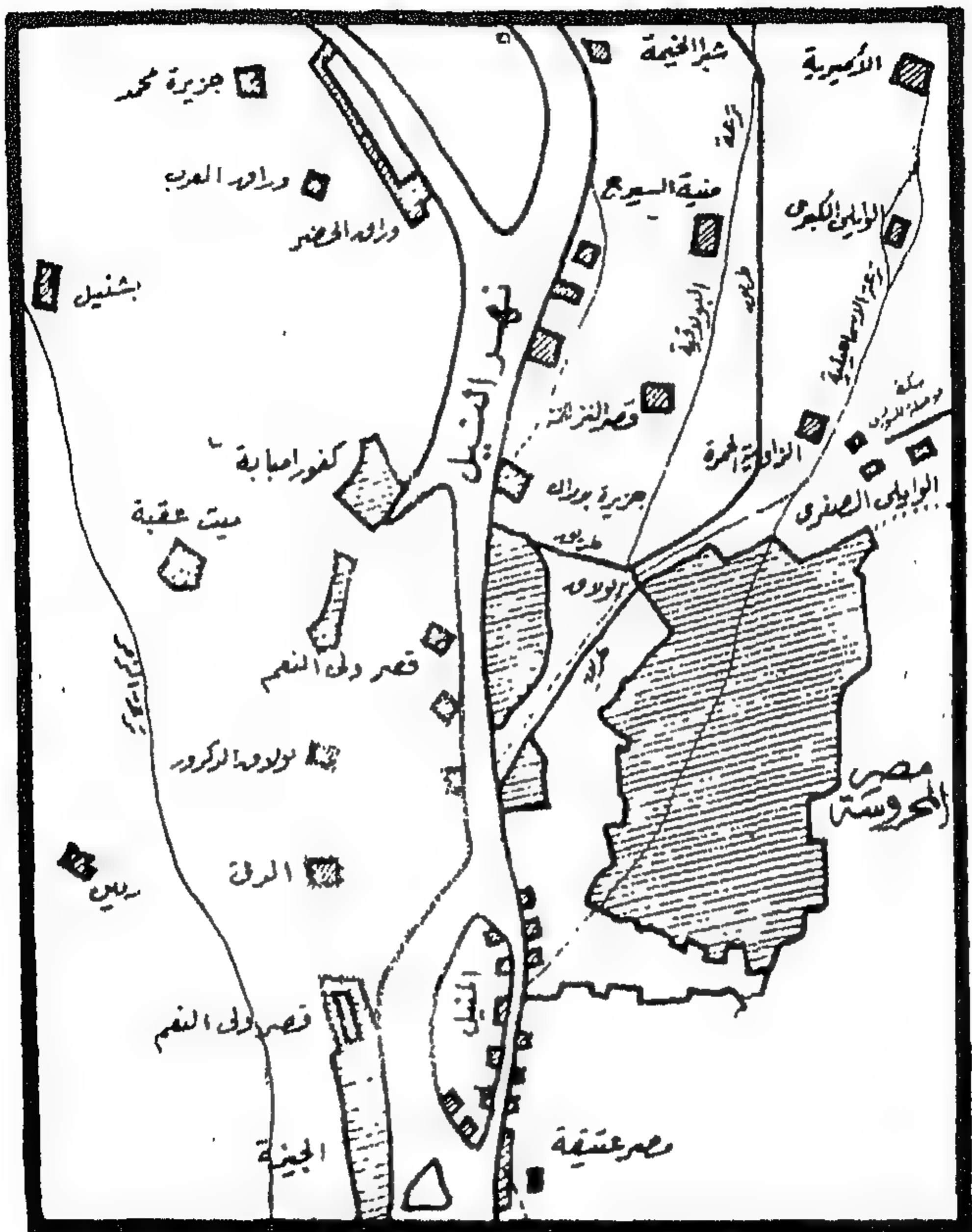
ومن أجمل عمائره - دار سكنه بحارة عابدين وكانت من الدور العظيمة المحكّمة الاتقان والبناء ، لم تماثلها دار بمصر في حسنها وزخرف مجالسها وبابها من النقوش والرخام والقاشاني ، وغرس بها بنستانا بديعا بداخله قاعة متسعة بوسطها نافورة مفروشة بالرخام . وموجز القول أن عدد المساجد التي بناها أو جددتها عبد الرحمن كتحدا بلغ ثمانية عشر مسجدا ، يضاف اليها الزوايا والأسبلة والسقايات والمكاتب والقناطر . . الخ .

عظم شأن عبد الرحمن حتى استفحل أمر على بك الكبير ، فأخرجه منفيًا الى الحجاز وذلك في أول ذي القعدة عام ١١٧٨ هـ (١٧٦٤) فأقام بالحجاز اثنتي عشرة سنة حتى أحضره يوسف بك أمير الحج في عام ١١٩٠ هـ (١٧٧٦) بعد أن استولى عليه الهرم ، فدخل الى بيته مريضًا ، فأقام فيه أحد عشر يوما ثم مات ، ودفن بالمدفن الذي أعده لجثمانه بجوار باب الصعايدة بالأزهر .



بناء القاهرة الحديثة

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر ، أخذت القاهرة تنهض من كبوتها وتزيل آثار ما أصابها في أثناء الاحتلالين العثماني والفرنسي ، وبدأ البناء الأكفاء من أبنائها المعماريين والمهندسين يطورون تخطيط المدينة ويعملون بكل ما في طاقتهم على تقديمها على الأسلوب المدني الحديث وذلك لكي تلحق موكب الحضارة العالمية الحديثة . فأزالوا الخرائب والأنقاض ورددوا ما تبقى في ساحاتها من البرك والمستنقعات ونقلوا المقابر المبعثرة في جميع أحيائها ، ومدوا الطرق الفسيحة ، وأقاموا المستشفيات الجديدة ، وغرسوا الحدائق والبساتين ، وشيدوا القناطر عبر النيل ، وبنوا الجامعات الحديثة ، والوزارات . وباختصار قدموا للقاهرة أحدث أساليب التخطيط الحديث في الأحياء



خريطة القاهرة

والضواحي التي أنشئوها في المعادي
ومصر الجديدة والدقي ومدينة نصر
.. مما نشاهده أمامنا اليوم في
مدينتنا الخالدة .

ونرجو أن نواصل الجهود في الحفاظ
على مبانينا التاريخية القديمة ، ونعمل
على صيانتها من كل ما يصيبها فهي
معالم القاهرة الألفية ومن مقومات
شخصيتها الجليلة .

الفصل الرابع

رجال العمارة وهندسة البناء في القاهرة

في شهر نوفمبر عام ١٣٨٢ حظيت القاهرة بقدوم المؤرخ والفيلسوف التونسي عبد الرحمن بن خلدون ، فبهرتة عظمتها وجمال عمارتها ، ونراه يسجل انطباعه عنها في ذكرياته ، قائلا :

« انتقلت الى القاهرة أول ذى القعدة عام ٧٨٤ هـ (١٣٨٢) ، فرأيت حاضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر ، واىوان الاسلام ، وكرسی الملك ، تلوح القصور والأواوين في جوه ، وتزهر الخوانك والمدارس بآفاقه ، وتضئ البدور والكواكب من عليائه . وقد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة ، وموقع مياه السماء يسقيهم النهل والعلل سسيحه ، ويجبى اليهم الثمرات والخيرات ثجة ، ومررت في سكك المدينة تغص بزحام المارة ، وأسواقها تزخر بالنعيم . . . ثم ختم حديثه

قائلا : « ومن لم يرها (يقصد القاهرة) لم يعرف عز
الاسلام » (١) .

استقر ابن خلدون في القاهرة ما يقرب من ربع
القرن حتى توفاه الله في سنة ١٤٠٦ بعد أن شغل عدة
مناصب دينية وعلمية كبرى ، كان من أهمها مناصب
القضاء .

عاصر ابن خلدون في مصر زميل ومؤرخ نعرفه حق
المعرفة ، وهو العلامة أحمد بن علي المقرئ (١٣٦٤ -
١٤٤١) الذي وصف لنا القاهرة وعمارتها وأخطاها
وأمدنا بتاريخ واف عن هذه المدينة الجليلة ، حينما تناثرت
فيها المساجد والأضرحة والدور والقصور والمدارس
والحمامات والوكالات والأسواق ، وكل منها يحكى قصة
تاريخية جليلة عن منشئها ومهندسها ، وجمال عمارتها .
وموجز القول ، فقد كانت القاهرة في تلك الأيام (القرن
الخامس عشر) مدينة رائعة الجمال فخمة البناء ترصعها
العمائر الرائعة في كل حي من أحيائها التليدة . . كانت
جميع المباني العتيقة التي نمر بها اليوم ، كمدرسة
السلطان حسن وقصور الأمير مامى ويشنبك وبشتك
وخانقاه فرح بن برقوق ، وعمائر الناصر محمد بن قلاوون
وأبيه ، كانت جميعها في قمة مجدها حينذاك !

(١) عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ هـ - ٨٠٨) : التعريف بابن
خلدون ورحلته غربا وشرقا ، حققه الاستاذ محمد بن ناوي الطنحي
لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥١ .

تلك هي القاهرة التي نوجد ذكرها ، المدينة الألفية
التي تفخر بأزهرها الجليل على مر الزمن . القاهرة التي
احتوت على مئات من الكنوز الأثرية التي تحكى تاريخها
خلال ألف سنة . . . وكأنها موسوعة معمارية ، تصف طراز
كل عصر وأسلوب كل زمن فى فن البناء والزخرفة
والنقش : مآذن وقباب ومحاريب وأضرحة وأسبلة نشاهدها
فى تطور معمارى منسجم . وكأننا فى متحف يوضح تطور
أساليب العمارة التي امتازت بها القاهرة .

مرت بنا أسماء جميع الحكام الذين أسهموا فى بناء
عمائر القاهرة ولا سيما السلاطين المماليك وأمرأؤهم ممن
أقاموا المدارس والمساجد والخوانق والمدافن التي تميزت
بالتأنق فى مآذنها وفى قبابها . وقد جهل معظم هؤلاء روح
الاسلام ، فحسبوا هذا الدين السمع مظاهر من بناء مساجد
ومدارس ومستشفيات وخوانق ومشاركة فى صلوات عامة
لا تنهاهم عن فحشاء ولا تردعهم عن منكر (١) . وعلى أية
حال فقد كان لهؤلاء المماليك مزايا أخرى ، فى طبيعتها
الجهاد المسلح فى سبيل تحرير الأراضى الإسلامية من
الصليبيين المعتدين وقد ظفروا ، والحق يقال .

فمن هم أولئك الرجال من مهندسين ومعماريين

(١) محمد الصادق حسين : البيت السبكي بيت علم فى دولتى
المماليك ، ص ٢٧ ، دار الكاتب المصرى ، القاهرة ١٩٤٨ .

وبنائين وزخرفيين أصحاب الفضل الأول فى بناء القاهرة
وتشييد مبانيها الجليلة ؟؟

لا شك أن هناك أسماء لا يمكن بآية حال من الأحوال
أن نجعلها وهى أسماء القائد جوهر الصقلى باني القاهرة
والأزهر والقصر الكبير الشرقى ، وهناك سيده المعز لدين
الله وابنه العزيز بدين الله الذى يعزى اليه بناء جامع الحاكم
بأمر الله وإن لم يكمله ، وهناك أيضا القائد الحازم بدر
الدين الجمالى الذى أعاد بناء أهم بوابات القاهرة فمن
الحجارة بدلا عن اللبن ، وكذلك ابنه الأفضل . ولن ننسى
أيضا صلاح الدين الأيوبي وقائده قراقوش الذى شيّد
أمجد بناء مازال شامخا فوق المقطم وهو قلعة الجبل المعروفة
بقلعة صلاح الدين . وإلى جانب أولئك الرواد الذين
صنعوا القاهرة ، توجد طائفة تدين المدينة الكبرى لهم لما
شيدوه فيها من المباني الرائعة .

ففى النصف الأول من القرن التاسع شيّد أبو بكر
البناء (١) لأحمد بن طولون عدة مبان ، وفى فلسطين شيّد
حصنا منيعا فى عكا . كما وصل إلينا اسم المهندس ابراهيم
ابن غنائم بن سعيد الذى بنى القصر الأبلق بالقلعة وضريح
السلطان الظاهر بيبرس بدمشق عام ١٢٧٧ (٦٧٦ هـ)
ولا يزال اسمه منقوشا على باب هذا الضريح ويعرف اليوم
بالمدرسة الظاهرية .

(١) يظن أن ابن الرومية هو الذى بنى فواره مسجد أحمد بن
طولون عام ٣٨٥ هـ (١٩٥) بأمر الخليفة العزيز بالله .

ابن السيوفى :

فاذا انتقلنا الى عصر دولة المماليك الاولى وهو عصر البناء ، ولا سيما فى أيام أسرة قلاون ، يقابلنا ابن السيوفى فى طبيعة مهندسى الناصر محمد بن قلاوون . ذكره المقرئى فى خطه عند كلامه على مدرسة الأمير عبد الواحد أقبغا الكائنة على ميسرة الداخل الى الأزهر من بابه الرئيسى المعروف بباب المزينين وهى الآن مقر المكتبة الأزهرية وكان ذلك فى سنة ٧٤٠ هـ (١٣٣٩ / ٤٠) . وقد شيد ابن السيوفى مسجد الطنبغا الماردينى وهو تحفة رائعة فى الدرب الأحمر ، كما بنى مئذنته أيضا .

شهاب الدين أحمد بن أحمد محمد الطولونى :

عاش فى القاهرة وبنى مدرسة وخانقاه الظاهر برقوق عام ٧٨٨ هـ (١٣٨٦) . كانت له خطوة كبرى عند السلطان ، فرقاه الى رتبة الخاصكية ثم منحه لقب أمير عشرة . وفى سنة ٧٩٤ هـ (١٣٩١ / ٢) تزوج برقوق من ابنته . ثم أوفده عدة مرات الى مكة لاصلاح مسجد الحرم وبعد فراغه من العمارة فى آخر المرات توفى وكان ذلك فى ١٠ صفر ٨٠٢ هـ (١٣٩٩) (١) .

ومن مهندسى العصر المملوكى ، البارزين : المهندس

(١) الضوء اللامع للسخاوى : ج ١ ص ٢٢١ أنظر أيضا

ج ٦ ص ٢٠٨ .

أبجيج الذى أشرف على بناء قاعة الدهيشة التى كانت تطل على الحوش بقلعة الجبل وقد عمرها السلطان الصالح اسماعيل بن محمد بن قلاوون سنة ٧٤٥ هـ (١٣٤٤) ، وأبو بكر المعروف بابن قيسون ، وأحمد بن على المهندس المعروف بابن الرسول ، وإبراهيم بن عبد الله بن يوسف . وهناك المهندس محمد بن بيليك المحسن مهندس مدرسة السلطان حسن ، وهو واحد من أسرة اشتهر بعض أفرادها بهندسة البناء ، ويعتبر عمله الشامخ هذا من أعظم العماير الإسلامية فى العالم .

ومن أشهر مهندسى دولة المماليك الثانية (الشراكسة) :

- على بن محمد بن أحمد المعروف بابن الحسن .
- إبراهيم بن عبد الله المهندس .

اسماعيل بن على بن محمد المهندس المعروف بابن الفقيه .

على بن محمد بن عبد القادر المهندس المعروف بابن الصياد .

✳ والمهندس محمد بن القزاز الذى شيد منارتى مسجد المؤيد شيخ الملاصق لباب زويلة (٨٢٢ هـ - ١٤١٩) وقد انتهز ابن القزاز وجود هذا الباب العظيم لصق المسجد فاتخذ من بدنتيه قاعدتين لمنارتيه ، وكان موفقا حقاً .

وهما منارتان رشيقتان لسكل منهما ثلاث دورات حليت
بالتابات والنقوش، وتقوم الدورة الثالثة على عمد رشيقة،
وكتب على المئذنة الشرقية : « عمل هذه المأذنة المباركة
العبد الفقير الى الله تعالى محمد بن القزاز وكان الفراغ ول
رجب سنة اثنتين وعشرين وثمان مائة » . وكذلك نقش
على المئذنة الغربية كتابة بهذا المعنى وتاريخها ثلاث وعشرين
وثمان مائة .

حسن بن حسين الطولوني :

ولد بالقاهرة في عام ٨٣٦ هـ (١٤٣٢/٣٣) ونشأ
في أسرة من رجال العماراة ، وتلقى العلم على السخاوي
المؤرخ المصري الذي أثنى عليه كثيرا . تقدم في عمله حتى
نال حظوة السلطان أينال وفي ربيع الأول عام ٨٥٧ هـ
(١٤٥٣) عينه « معلم المعلمين » ومعلم المعمارية . شيد
ضريح خشقدم بالقاهرة ومنحه خلعة الشرف في ٩ ربيع
ثان عام ٨٦٦ هـ (١٤٦٢) حينما زاره السلطان في أثناء
قيامه بالعمل . بيد أنه استغنى عنه بعد زمن وعين مكانه
بدر الدين حسن الطنسمي عام ٨٦٩ هـ (١٤٦٤/٥) ثم
استدعاه ثانية ورفعت مرة أخرى ! (١)

وفي شوال عام ٨٧٤ (١٤٧٠) تولى المنصب بدر الدين

Mayer, L.A. : Islamic Architects and their Works, Genève,
1956.

محمد بن الكويز (وسنتكلم عنه) ويبدو أنه استعاد منصبه بدليل ان السلطان ندبه للقيام باصلاحات في مسجد القلعة وتوسيع صهريج المياه الخاص بالفوارة . وكان يقوم بالعمل في صفر عام ٨٨٦ هـ (١٤٨١) . وفيما بين ربيع الثاني من العام المذكور وشهر رجب ٨٩٦ هـ (١٤٨١ - ١٤٩١) قام باصلاح جامع جزيرة الرمضة وبناء طواحين المياه (النواعير) بالقاهرة وكانت تعتبر من مشاهد القاهرة ، وربما أصلح ابن الطولوني حينذاك مقياس النيل . وفي عام ٨٩٢ أصلح قنطرة أبي المنجا ، ثم أدى فريضة الحج في عام ٨٩٨ هـ (١٤٩٣) . ومن المحقق أنه كان رئيسا للمعلمين في عام ٩٠٨ هـ (١٥٠٢ / ٣) ، وتوفاه الله بعد تأديته فريضة الحج عام ٩٢٣ هـ (١٥١٧) وكان ابنه شهاب الدين أحمد خلفه رئيسا للمعلمين لما فقد والده بصره . وقد ذكر اسمه بين أعيان الصنائع الذين رحلوا الى الأستانة عام ١٥١٧ بعد فتح العثمانيين لمصر .

بدر الدين محمد بن الكويز :

من معماريي عصر السلطان الأشرف قايتباي . عينه في ٨ شوال ٨٧٤ هـ (١٤٧٠) « معلم المعلمين » بدلا عن حسن الطولوني . في ذي الحجة من عام ٨٧٥ هـ (١٤٧١) بدأ باصلاح الايوان الكبير في قلعة الجبل . وكان القاضي أبو بكر محمد بن مزهر كاتب سر السلطان قايتباي هو المشرف على هذا العمل وقد أنفق عليه حوالي ٢٠٠٠٠ ر .

دينار . وفى شعبان ٨٨٣ هـ (١٤٧٨) عين ناظر الخاص
(الأعمال الخاصة بالسلطان) . وتوفى ابن الكويز فى
شعبان ٨٨٥ هـ (١٤٨٠) وهو فى الثامنة والخمسين .

*** ومن مهندس عصر قايتباى أيضا :**

- المعلم ابراهيم الشهير بالسكرى (١) .
- عبد الله ابن شعبان بن سليمان المهندس .
- أحمد بن محمد بن أحمد المشهور بابن العظمة .

المعلم محمد بن أحمد بن على النشادرى المعروف بابن
سبيع ، ولعله كان من المهندسين الذين كلفهم الأتابكى
أزبك بن ططخ بإقامة مسجده ودوره الجليلة فى الأزبكية ،
وكان لهذا المهندس الثرى عمل لصنع النشادر بخط
باب اللوق (٢) .

*** ومن مهندسى عصر السلطان قانصوه الغورى :**

المعلم الشمسى محمد بن المعلم المحيوى عبد القادر
ابن الصياد .

أحمد بن على بن أحمد المعروف بالسجراوى .

(١) وثيقة قايتباى أوقاف ٨١٠ .

(٢) وليقنة أزبك بن ططخ محكمة ١٩٨ . انظر أيضا . د.
عبد اللطيف ابراهيم : سلسلة الدراسات الوثائقية ، ص ٨٠ - ٨١ .

يوسف ابراهيم بن عبد الله المعروف بمهندس باب
السلسلة بالقلعة .

ونضيف الى هؤلاء الأجلاء بعض مشاهير المعمارين في
العصر الحديث ، وعلى رأسهم على ليب جبر ، ومحمود
رياض ، ورمزي عمر ، وسعيد كريم ، وأنطون نحاس ،
ومحمد شريف نعمان ، ومحمود فكري عبد الخالق ، وفوزي
حسنين ، وأبو بكر خيرت ، واسكندر كليماندوس ،
وشارل عيروط ، وعلى نصار وغيرهم من سادة المعمارين
المعاصرين .

وهؤلاء المهندسون الذين شيدوا القاهرة وجملوها
بالعمائر التي نشاهد بعضها الى اليوم يعوزهم طوائف
النحاتين والبنائين والمرخين والنجارين وغيرهم من أصحاب
المهن والحرف الأخرى . ومما يؤسف له انه لم يصلنا أسماء
الكثير منهم . فمن البنائين والنحاتين : حاتم البنا وابنه
من بنائي الفاطميين ، وأسرة المعلم يونس البرلسي وقد
أسهمت في بناء مسجد أحمد البجم بأبيار سنة ١٠٤١ هـ
(١٦٣١) . ومن المرخين محمد بن أحمد وأحمد زغلش
الشامي وقد كتبا اسميهما على جانبي باب قصر قوضون
(ح ١٣٣٨ م) وهو باب جميل لاشتماله على مقرنصات
وكتابات دقيقة ، وعبد القادر النقاش الذي قام بنقش رخام
مدرستين من أفخم مدارس دولة المماليك الشراكسة وهما
مدرستا قجماس الاسحقى وأبى بكر مزهر ، وقد كتب

اسمه في مسجد قجماس المنشسا سنة ٨٨٥/٨٨٦ هـ
(١٤٨٠ / ٨١) في دائرة زخرفية بتجويفة المحراب طردا
وعكسا بما نصه «عمل عبد القادر النقاش» ، وكتبه بشكل
زخرفي آخر في خواصر العقود ، وكذلك كتب اسمه في
خواصر عقود المدرسة المزهرية ، وفي جحور الشبايبك (١) .
وهناك أيضا المرخم على بولاقى الذى نقش اسمه على شاهد
قبر اسماعيل بك دفتر دار مصر (ت ١١٣٣ هـ / ١٧٢٠) .

ومن النجارين وقد وصل اليثا أسماء كثيرة منهم ،
نذكر : محمد بن عينو أحد نجارى جامع ابن طولون وقد
كتب اسمه بالكوفية على ظهر ألواح الازار الكوفى وعلى
بعض أجزاء السقف . وعبيد النجار المعروف بابن معالى
وهو الذى صنع تابوت الامام الشافعى سنة ٥٧٤ هـ
(١١٧٨) فى أيام صلاح الدين وهو تحفة بديعة جدا
ويعتبر من ارقى نماذج أعمال النجارة والحفر فى الخشب ،
وقد كتب الصانع اسمه فى الطرف العلوى للمغطاء الهرمى
وبخط صغير ، والنجار أحمد بن عيسى بن أحمد الذى صنع
منبر مدرسة أبى بكر مزهر بحارة برجوان التى بنيت فى
سنة ٨٨٤ هـ (١٤٧٩) وله منبر آخر فى جامع الغمري ،
والنجار على بن طنين صانع منبر مسجد أبى العلاء الذى

(١) حسن عبد الوهاب : توقيعات الصنائع على اثار مصر
الاسلامية : مقال نشر فى مجلة المجمع المصرى ، ج ٢٦ (١٩٥٢) -
١٩٥٤ .

شيد حوالى سنة ٨٩٠ هـ (١٤٨٥) وهو منير تميز بتقاسيم ريشتى جانبية ويعتبر مثالا كاملا لأعمال النجارة فى دولة الممالك الشراكسة .

أما المكفتون والنحاسون فكثيرون وقد وصلت إلينا طائفة من أعمالهم الفنية المحفوظة فى متاحف العالم ، ومنهم أحمد بن باره الموصلى الأصل الذى صنع صندوقا للربعة الشريفة ، مكفتا بالذهب والفضة باسم الناصر محمد ابن قلاوون فى سنة ٧٢٣ (١٣٢٣) ، وهو الآن مودع بمكتبة الجامع الأزهر ، وبدر بن أبى يعلا صانع النريا الكبيرة الموجودة فى متحف الفن الإسلامى وهى من النحاس الأصفر ومكونة من خمس طبقات وهى باسم الأمير قوصون مؤرخة سنة ٧٣٠ هـ (١٣٣٠) .

المراجع

- ابن أبى أصيبعة : عيون الانباء فى طبقات الأطباء .
- ابن الاكفانى ، محمد : نخب الذخائر فى أحوال الجواهر ، تحقيق الأب أنستاس الكرملى ، القاهرة ١٩٣٩ .
- د . أحمد عيسى : معجم الأطباء ، القاهرة ، ١٣٦١ هـ / ١٩٤٢ .
- د . بول غليونجى : ابن النفيس ، سلسلة كتب أعلام العرب رقم ٥٧ ، القاهرة ١٩٦٧ .
- جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ، خمسة أجزاء ، القاهرة .
- د . زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، القاهرة ، ١٩٤٨ .
- د . زكى محمد حسن : مصر والحضارة الاسلامية ، سلسلة الثقافة العسكرية .
- السخاوى : الضوء اللامع فى أعلام القرن التاسع ، القاهرة .
- د . سيدة اسماعيل كاشف بالاشتراك مع

د . حسن أحمد محمود : مصر فى عصر الطولونيين
والاخشيديين القاهرة ، ١٩٦٠ .

السيوطى ، جلال الدين : حسن المحاضرة فى أخبار
مصر والقاهرة .

عبد الرحمن زكى : تراث مصر فى الحضارة الإسلامية
القاهرة ١٩٥١ .

عبد الرحمن زكى : القاهرة من جواهر الى الجبوتى ،
القاهرة ١٩٦٥ .

عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة ،
القاهرة ١٩٦٩ .

د . عبد اللطيف ابراهيم : دراسات فى الكتب
والمكتبات الإسلامية ، القاهرة .

على مبارك باشا : الخطط التوفيقية الجديدة ، القاهرة .
١٨٩٢ .

قدري حافظ طوقان : تراث العرب العلمى فى
الرياضيات والفلك ، القاهرة .

القفطى ، جمال الدين : أخبار العلماء بأخبار
الحكماء ، مطبعة السعادة .

القلقشندي : صبح الأعشى ، القاهرة .

محمد عبد الله عنان : الحساكم بأمر الله وأسرار
الدعوة الفاطمية ، القاهرة .

المقريزي : المواعظ والاعتبار في ذكرى الخطط
والآثار . القاهرة .

مييل ، ألدو : العلم عند العرب وأثره في تطور
العلم العالمي ، دار القلم ١٩٦٢ دائرة المعارف الاشتلامية ،
القاهرة .

مجلة الجمعية المصرية للتاريخ العلوم ، القاهرة .
الموسوعة العربية الميسرة ، القاهرة ، ١٩٦٤ - مجلة
المقتطف .

Glanville (Editor) Legacy of Egypt. Oxford 1947
Meyer half, max : Climate and Health in Old
Cairo, according to Ali Ibn Radwan, Cairo, De-
cember 1928.

Partington, J.R. : A History of Greets fire and
Gynpowder, Cambridge.

Sarton : Introduction to the History of Science,
3 vols.

Sbath, Paul : Catalogue de manuscrits arabes, 3
parts.

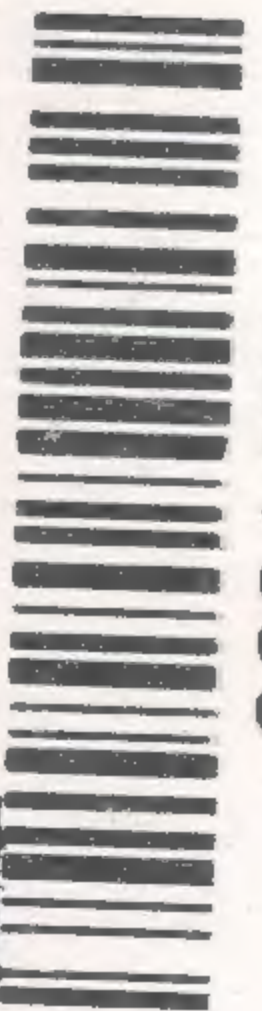
مطبعة الشرق القاهرة ١٩٣٨ - ١٩٤٠ .
: Deux traités médicaux édités et traduits
par P. Sbath et chr. Avierinos, Inst. F.A.O.,
Le Caire, 1953.

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
الفصل الأول :	
بناء القاهرة	٥
الفصل الثانى :	
بناء القاهرة فى أيام الأيوبيين	١٧
الفصل الثالث :	
القاهرة فى أيام دولة المماليك وبعدها	٣٣
الفصل الرابع :	
رجال العمارة وهندسة البناء فى القاهرة	٨٤
المراجع	٩٦

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

Bibliotheca Alexandrina



0601473

رقم الإيداع بدار الكتب ١٧٧٩/١٩٨٦

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ٠٨٧٧ - ٤